(٥)

طفل (عليل) على ذراع متسولة* !

هذه المرأة القارحة الغليظة الوجه التى لا تتعب من التسول.. أنت تعرفها، إنها واحدة من نسوان كثيرات يملأن نفسك ألمًا وخجلاً، لأنهن أخذن طفلاً بريئًا مسكينًا واستخدمنه وسيلة للتسول وجمع القروش.

وهذا الطفل العليل المسكين الذى تعذبه هذه المرأة وشبيهاتها، وتحمله على كتفها زاعمة أنه مريض مسكين، هو فى الحقيقة طفل عزيز عليك، إنه قطعة منك ولهذا فأنت تتمنى أن تنتزعه من أيديهن القاسية، وتضعه حيث يلقى العناية والعطف الإنسانى، ويشب رجلاً سويًا ويسير على قدميه.

إن هذا الطفل فى الحقيقة ليس مشكلة، فهو ليس مريضًا أو عليلاً، ولكن المشكلة هن أولئك النسوة القوارح المتسولات.

لا سبيل إلى الحياة الكريمة لهذا الطفل إلا إذا تخلص من أولئك المتسولات به، اللائى جعلن منه مأساة، وما هو بمأساة على الإطلاق.

امرأة (بالملاية اللف) على قارعة طريق.

على ذراعها طفل عليل ملقى على الكتف كأنه خرقة هالكة، المرأة بطفلها على الرصيف، لا يمر إنسان إلا أسرعت إليه: (شىء لليتيم يا سعادة البيه.. شىء لله يا ست هانم.. حاجة للولد الغلبان ده يا محسنين)!.

وتظهر إشارة المرور الحمراء وتتوقف السيارات، المرأة تقفز بالطفل، كأنها شيطان، ومن سيارة لسيارة تستعطف للطفل وتتسول باسمه، وتمتلئ الكف الممدودة بخمسات القروش تندس فى الجيب. وتخضر

---

* نشرت هذه المقالة فى ٢٤ يناير ١٩٨٢م .

إشارة المرور وتنطلق السيارات، وتقفز الشيطانة إلى الرصيف الآخر وتمضى عملية التسول، وتمتلئ اليد بالقروش، ربما بالخمسات ويستقر ذلك كله فى الجيب.

وهكذا من أول النهار إلى آخر النهار.

وطول النهار والطفل المسكين على الكتف كأنه خرقة مبللة ملقاة على مسند كرسى قديم، أحيانًا يصحو ويتلفت حوله، وأحيانًا يبكى، وتمد المرأة القارحة يدها التى لا تغسل أبدًا وتخرج كسرة خبز تناولها للغلام، الغلام يلقى بها إلى الأرض لأنه ليس جوعان بل عطشان، والمسكين مبلل ملتهب الجلد، والمرأة لا وقت لديها لتسقيه، ولا صبر عندها لتنظر فى ثيابه المبللة وجلده المهترئ. وتشعر هى بالعطش، فى حارة مجاورة يقف بائع خيار، تمضى مسرعة نحوه لتشرب وتعود إلى موقعها، فهى لا تطيق أن تفقد خمس دقائق من اليوم.. بائع الخيار الطيب يعرفها ويقول لها:

- ياولية، الولد هلك.. ارحميه شوية.

وبكل وقاحة تقول المرأة وهى تكرع من كوز ماء:

- حرام عليه.. الولد هلك! وأنا ما هلكتش..؟ طول النهار شايلاه على كتفى زى الحجر.

- ده الولد مبلول غرقان ياولية حرام عليك.. غيرى له ثوبه ولباسه، نشفيه.. أنت تجمعين من ورائه الذهب.

- دهب ايه يا حسرة، وهل بقى فى الدنيا محسنون.. والله يا عم عطية ما جمعت إلى الساعة ما اشترى به غذائى.

- طيب هاتى الوالد ياولية، أنا أغسله وأشوف له حاجة ناشفة من عندى ألفه فيها.

– طب بالعجل.. ليس عندى وقت لك أو له.

ويأخذ الرجل الطفل وهو بقول: لا حول ولا قوة إلا بالله يـارب.. ده الولد ميت من العطش ياولية.. وهدومه مبلولة تنعصر.

ويرقد الرجل الطفل على جانب من عربـة اليد إلى جـانب الخيـار، ويأمر امرأته بأن تتولى عمل البيع بينما هو ينزع ملابس الطفل، ويغسـله بالماء البارد وتناوله امرأته خرقة جافة يجفف الطفل بها، ثـم يلفـه فـى خرقة أخرى. وتأخذ المرأة خيارة فتناولها للطفل.. ويقول الرجل:

– لا ياولية.. هذا الطفل صغير لا يأكل الخيار.. روحـى هـاتى بـاكو بسكوت من البقال ده.

– بسكوت؟ منين يا حسرة.. وهـل أنـا وجـدت الخـبز حتـى أطعم (مقصوف الرقبة) هذا بسكوتا؟ لقد دفعت لأمه ثلاثين قرشا إيجارا قبـل أن أتسلمه.. ثم تقول لى أن اشترى له بسكوتا؟..

– ياولية وانتى فى جيبك جنيهات من وراء هـذا المسـكين.. افرضـى أنك أخذته من أمه بخمسة وثلاثين قرشا.

– يفتح الله يا عم عطية.. عاوز تجيب له أنـت بسـكوت والا حتـى بقلاوة هات له أنت.. وأنت – عينى عليك باردة – جيبك مليان.

ويأمر الرجل ابنا له يلعب جواره بأن يشترى باكو بسـكويت بعشـرة قروش، ويكون الطفل قد انتعـش مـن هـذه (الإغاثـة) أو الغـوث.. التـى تداركه بها الله، وينجلى وجهه جميلاً لطيفًا بعـد أن اغتسـل وشـرب، ويأتى البسكويت فيأكله والمرأة كالشيطان تتململ، إنها تريد أن تخطف الطفل وتجرى به إلى موقف التسـول المختـار، ولكـن الرجـل يسـتمهلها ويأكل الطفل ويضحك، ويتألق وجهـه الوسيم وتبـدو عينـاه السـوداوان الجميلتان، ويأتى ابن عم عطية ليلعب معه، المـرأة ينفـد صبرهـا. إنـها

لا تطيق رؤية السيارات تقف عند إشارة المرور وفيها سادة في جيوبهم مال، يمكن أن يجودوا منه بشيء، فتخطف الطفل، وتخطف من يد الرجل بقية البسكويت وتدسه في فمها، وتمضي إلى قارعة الطريق.

والغلام المسكين روعه ما فعلته تلك القاسية فبكي، وسرت المرأة ببكائه فاسرعت في خطوها لأن بكاء الطفل يعتصر قلوب المحسنين، ومن رصيف لإشارة مرور، ومن إشارة مرور إلى الرصيف الآخر، واليد القذرة تأخذ الخمسات والقروش وتضع في الجيب الذى لا يمتلئ أبدًا. وييأس الطفل من الرحمة ويدركه التعب فيرتمي رأسه على الكتف وينام، وعلى الدموع تقفل عيونه، والشيطانة تقفز به من ناحية لناحية وتمضي ساعات النهار.

في آخر نهار مهلك تعود المرأة بالطفل إلى الحارة التي تقطن فيها، قبل أن تأوى إلى دارها تمر ببيت أم الطفل وتلقى بهذا (الشيء).. الذى قضت النهار تحمله على كتفها تقسم بالله إنها ما كسبت به قدر ما دفعت، الأم شقية كثيرة العيال ولها زوج كأنه الضبع التي تعيش على الرمم.. هذه الزوجة في نظره (رمة) يتشممها آخر الليل ليأخذ منها ما بقي في جيبها من قروش. إن له منها سبعة أولاد أو ثمانية كلهم يعيشون على قوارع الطرق، بعضهم على أقدامهم، والباقي على أكتاف نسوان كهذه التي كنا معها..

هذه المرأة حاملة الطفل لتتسول به هي في نفسها ضبع، ولها زوج ضبع مثلها، إنه يلم بها آخر ليله التعيس ليقضي معها وقتًا تعيسًا ولكنها ترضى به، فقد ماتت في كيانها الإنسانية من زمن طويل، في العادة هي تعد لهذا الزوج الشقى الذى يعيش عمره يتشمم الرمم شيئًا من طعام، وهي رغم شقوتها تطعمه وتسعد به لحظات كما تسعد أى ضبع إلى جوار ضبعها، ولكي تزيد سعادتها فهي تتحرى أن تصنع له

طعامًا يرضيه فهى ميسورة الحال وهى لا تعطيه قط كل ما تجمع ولا نصفه ولا ربعه، وهى تعرف كيف تخبئ المال فى جحور أو تحت بلاطات أو فى مراتب آمنة كأنها البنوك السويسرية.

والأم الشقية بكثرة العيال لا تموت فيها الأمومة أصلاً، إنها تغسل طفلها وتطعمه وتغير ملابسه.. والطفل ينام منهوك القوى لقد شرب وأكل أيسر ما يؤكل ونام كما ينام كل طفل، بينما تكون الضبع الأخرى مع ضبعها فيما تتصور أنه متاع بفضل القروش التى تدفعها له، وهو كذلك يسعد بما يعطيها من لحظات، ولكنه أسعد بما تعطيه من مال، فهو عاطل حرفته استغلال أولاده، وهو بالنهار على المقهى، منظره يذكرك - من بعيد جدًا - بأحلاس مقاهى الشانزلزيه والفيافينيتو وشواطئ بحيرة جنيف أو بحيرة ليمان أولئك المياسير الذين ينامون فى أفخم الفنادق وينفقون عن سعة، لأن مورد رزقهم مضمون مأمون.. كله من مال المحسنين.

وفى ساعات الفجر يتقلب الطفل المسكين فى فراشه على الأرض فى البيت المظلم الواقع فى شارع أشد ظلامًا، إنه يتقلب ويصحو ويبكى، وتنهض الأم فتسقيه وتغير خرقه البالية بخرق أخرى وتربت عليه لينام، فعن قريب يطلع النهار وتأتى الضبع لتنقدها القروش وتلفع (المسكين) على كتفها، وتمضى به كالشيطانة إلى قارعة الطريق لتقفز به من الرصيف إلى السيارات إلى الرصيف الآخر.

□□□

والذى يعنينى فى هذه الصورة الحزينة هو الطفل المسكين. لأن النساء اللائى مررنا بهن أمرهن معروف، فإنهن نسوان قوارح جامدات الأصداغ بلا حياء، وسنتحدث بعد قليل عن حاملة الطفل أو حاملات الأطفال متسولات بهم لأنهن فى حقيقة الأمر سبب مأساة هذا الولد

المسكين، وأذكر أن منظر الطفل آلمنى يومًا بعد يوم. وفى ذات مرة لقيت إحدى النسوة على الرصيف فقلت لها: إذا كان أمر هذا الطفل يشقيك إلى هذا الحد فما يمنعك أن تعطينى إياه. وأنا أمضى به إلى دار حضانة وأتكفل بنفقاته جميعا، لأنه ليس من العدالة أن تحمل عبئه امرأة فقيرة مثلك غير قادرة على القيام بشئون نفسها فضلاً عن شئون طفل صغير؟.

قالت: أعطيك إياه؟ أنا أمه التى أنجبته كيف أعطيه لرجل غريب؟.

– ستظلين أمه، وسيظل ابنك يا ست، وكل الذى سأفعله هو أننى سأتولى نفقات تربيته تربية صالحة، وهناك دور تقوم بهذه المهمة، فأضعه فى واحدة منها وأقوم بكل نفقاته وأنت تظلين أمه، وتزورينه.

– وماذا أقول لأبيه؟.

– أبوه؟ أما تقولين طول النهار أنه يتيم.

– قصدت زوجى وهو ليس أباه.. لا يا سيدى هذا مستحيل فهذا الغلام ابنى ولا أطيق فراقه.

وسمع الشرطى طرفًا من الحديث فأقبل نحونا وقال:

– يا سعادة البيه لا تتعب نفسك. هؤلاء نسوة لا يعلم بحالهن إلا الله سبحانه، وهذا الغلام ليس طفلها ولا هى تعرفه، إنما هى تستأجره لتتسول به.

– لا يعنينى أمر هذه المرأة أو غيرها يا حضرة الباش – شاويش، إنما يعنينى أمر الطفل فإن صحته تسوء ومستقبله يضيع، وما هو مصير هذا المسكين الذى تتبادله الأكتاف والأيدى؟.

– الطفل نفسه ليس مشكلة، إنما المشكلة هى مشكلة أولئك النسوة، ففى الحارة التى أسكن فيها عشرات الغلمان مثل هذا، ولا بأس بهم

ولا خوف على مستقبلهم فهم أطفال فقراء يتربون فى أحضان آبائهم وأمهاتهم ويشبون كما يشب غيرهم، ويتعلمون صنعة وقد يذهبون إلى المدرسة، ولكن مستقبلهم لا يضيع على أى حال، ولكن مصيبة هذا الطفل وأمثاله أن أمه بلا قلب، فهى تفرط فيه وتؤجره لمثل هذه المرأة التى تحاول أنت أن تقنعها بأن تعطيك إياه، وأنت لو تحدثت إلى الغد ما أجابتك إلى ما طلبت لأنها ترتزق منه، إنك تحاربها فى رزقها عندما تحاول إنقاذ هذا الطفل من يديها، وكلما كانت نيتك أحسن هى أكثر عنادًا.. والله يا سيدى لو أنك قلت لها إنك ستربيه على نفقتك حتى يدخل الجامعة لصرخت وقالت إنك نصاب خطاف أطفال وشهرت بك وتسببت لك فى فضيحة، لأن رأس مالها هو تعاسة هذا الطفل.. أتصدق بالله؟ هذه المرأة وأمثالها أغنياء من وراء أولئك الأطفال، وعندنا فى حارتنا امرأة أثرت واقتنت العقار من وراء مثل هذا الطفل.. إنها غنية ذات مال، فهى تكسب فى اليوم الواحد من الطفل الواحد ما بين خمسة جنيهات وثمانية وربما عشرة ومع ذلك فما زالت إلى يومنا هذا (تسرح) بالأطفال عل قوارع الطرق مرة فى الزمالك وأخرى فى الحسين وثالثة فى السيدة زينب، وفى الليل بعد أن تعيد الطفل إلى أمه أو أهله تعود إلى بيتها وتستحم وتتزوق وتبقى هانم معتبرة وميت ألاجه، حاجة من اتنين يا سعادة البيه: إما أن يظل الطفل المسكين تعيسًا كما ترى، أو تكون المرأة تعيسة فقيرة، وهى غنية موسرة لأنه تعيس غلبان، فإذا انتهت تعاسته فمن أين تعيش هى عيشة الملوك؟ والله يا سعادة البيه، إن لى ولا مؤاخذة ابن عم لا ينجب - بعيدًا عنك - وقد حاول كثيرًا أن يأخذ طفلاً من أولئك النسوة ليربيه ويتبناه فرفضن جميعا، بل قالت واحدة منهن له:

- تتبناه وتربيه؟ وأين أهله وذووه؟. أحسبت أن لا أهل له لأنه فقير؟.

– وماله الفقر؟ عيب؟ وماذا تريدين منه أنت ايتها الغريبة عنه المدعية الوصاية عليه؟ إنه غلام ذكى موهوب. وسيعيننى الله على أن أربيه وأعلمه وأدخله الجامعة نعم، الجامعة! ولماذا لا يدخل الجامعة؟ هل الذين يدخلون الجامعة أحسن منه؟.

– دع غلامنا لنا ونحن نربيه وابتعد أنت عنا وإلا خربنا بيتك.

ومضى الشاويش يقول: هذا ما أصاب أخى يا سيدى وكان يريد للطفل أكثر مما أردت أنت، كان يريد أن يتبناه وصبح أباه ويتولى شئونه كلها حتى يشب ويضرب فى الحياة كغيره من الأولاد، فتجئ هذه القارحة وتزعم أنها أمه وأنها هى التى ستربيه ولا ترضى له إلا بالجامعة!.

وكانت المرأة قد هربت بالطفل، وفى طريقى إلى البيت هتف فى نفسى هاتف، هذا الطفل أنا أعرفة.. إننى أعرف مأساته بل لأعيشها فعلاً فهى إلى حد ما مأساتى أنا أيضًا.. وهذا المشهد الذى رواه الشاويش سبق لى أن شهدت مثله.. أين يا ترى؟ وعلى باب بيتى جاء الرد:

المشهد رأيته فى أحد أروقة هيئة الأمم فى نيويورك.. كنت ملحقًا بوفد بلادى فى إحدى دورات هيئة الأمم. وكالعادة كانت قضية فلسطين على الأجندة، وستظل على الأجندة فيما أعتقد زمانًا طويلاً. وكنت أتصفح الأوراق فى أحد الاورقة وترامت إلى سمعى أطراف حديث من منضدة مجاورة واستولت هذه الأطراف من الحديث على سمعى، وإذا بواحد من المتحدثين يقول:

– والله يا جماعة إن المشروع الذى تتقدم به الدولة الفلانية لا بأس به، إن قضية فلسطين قد طالت وتعقدت، وكما تعقدت على مراحل فإن حلها لا يكون إلا على مراحل. وخطوة خطوة ومع مرور الزمن قد

تنحل المشاكل واحدة بعد أخرى. وفى يوم من الأيام لابد أن تنحل كلها ويستعيد شعب فلسطين حريته وأرضه ويسير فى طريقه.

ورد عليه زميل له فى صوت حاد عصبى:

– أولاً وقبل كل شيء قضية فلسطين هذه قضيتنا نحن.. نحن أهلها وأصحابها وممثلوها ولا ممثل لها غيرنا.. وأيا كان الحل المقدم فهو مرفوض لأنه بالذات لم يأت منا، ما هى الحكاية نحن أحياء ويتكلم غيرنا فى شأن فلسطين؟.

– ولكنك يا أبا فلان تقول إن فلسطين قضية عربية.

– لا يا أبا علان، أنا لم أقل ذلك ولا يمكن أن أقوله، إن قضية فلسطين قضيتنا نحن بالأمومة والأبوة.. ولكنها قضية عربية بالمعاونة والمساعدة.. من يريد أن يعطى من يريد أن يتكرم فليعطنا نحن، ونحن نتصرف، نحن رجال أشداء وقدها وقدود. نحن نعرف القضية ولا أحد غيرنا يعرفها، نحن وحدنا نمثل القضية فى الأرض المحتلة وخارج الأرض المحتلة، نحن نشترى السلاح ونتدرب ونضحى ويريد صاحب هذا المشروع أن يحرمنا ثمرات تضحياتنا؟ نحن وحدنا سنصل بفلسطين إلى الاستقلال الكامل، نحن سنحرر الأرض كلها ولهذا فنحن لا نقبل التهاون أو التفريط وكل فكرة لا تأتى منا فهى فى انهزامية استسلامية.. ما شاء الله!..

نحن نضحي وهم يفوزون بالتمر!..

ونظرت إلى الجماعة لأرى هذا المعصوصب المتحمس أتقرى فى هيئة آثار التضحية التى يتكلم عنها فرأيت شابًا أنيقًا يلبس بدلة من أثمن وأغلى ما عرفت وعليه قميص يقول لك من بعيد إنه تفصيل من صنعه بيير كاردان دون سواه، والحذاء جلد كأنه الحرير يتلألأ ويشع ويضيء،

وربطة الرقبة كما يقولون فى الحكايات (خيط لولى وخيط زمرد) والشعر جميل مسبسب فى صالون الفندق وفى اليد ساعة ديجيتال من ذهب ذى بريق، وفى اليد خاتم له فص كأنه الكوهى نور، وأمامه (شنطة) جلد ليزار وهى السحلية الفرنسية أو السويسرية التى يسمونها سلاماندر.

واستحييت من نفسى أنا الذى لا أضحى ولا أتحدث عن بطولة قط، فهذى بدلتى الغلبانة التى يرجع عمرها إلى أوائل سنواتى فى مدريد، صنعة ترزى الغلابة فى شارع فوينكارال وقميصى يا حول الله - اشتريته بسبعة دولارات أو ثمانية من متجر صغير فى شارع الفندق ورباط الرقبة قطعة قماش أسود، فقد كان ذلك بعد نكبة ١٩٦٧م ومن يومها إلى نصر أكتوبر لم أنزع الحداد، ثم عدت ألبسه بقدر من الله فى يوليو ١٩٨٠م.

وقالت نفسى لنفسى.

- إن معلوماتك فى حاجة إلى تصحيح، فإن التضحية كما أراها الآن تختلف عما كنت تقول لى وتزعم! انظر وتأمل التضحية ورمزها لتصحح معلوماتك. إنها هكذا بالضبط كما تراها بعينيك هذا معناها فى قاموس العرب الحديث صنعة الأب المارونى اليسوعى المعلوف. معلوف بماذا؟ لا أدرى ولكنه هكذا معلوف! أما المعانى التى تضحك بها على وتقول إنها من لسان العرب لابن منظور أو من تاج العروس للمرتضى الزبيدى فكلام قديم انتهى أمره وفات.

وبينما الحوار يشتد وصاحبنا المسحنفر المستعصب يكاد ينفجر من فرط الحماسة وحرارة التضحية جاء قوم عليهم سيما وجهاء العرب وجلسوا إلى منضدة قريبة ونظرت إليهم فرأيت علائم الأصل والشرف والحسب والنسب، وجلسوا يتحدثون فى أدب وتواضع وصوت

خفيض.. ولمحهم المسحنفر المستعصب فما أسرع مازال غضبه وانفرجت أساريره ورق وهش وبش ونهض إلى أهل الأدب والحسب والمال والحياء فحياهم بتحية الملوك واستأذن في أن يجلس فأذنوا له، ومضى يتحدث في ظرف ولياقة ويخرج أوراقًا من حافظته ويدخل أزراقًا وهو لا ينفك بنظر إلى الوجوه الوسيمة التي يتحدث إليها حتى إذا هز رئيسهم أو كبيرهم رأسه بالايجاب وأذن لابتسامة الرضا أن ترتسم على محياه فارتسمت، انتقلت البسمة إلى الوجه الذي كان منذ حين غاضبًا ينفث الشرر، وزاد الرضا فزادت الابتسامة وأصبحت من الأذن إلى الأذن، ولا أدرى ماذا قال ولا ما قيل له، ولكنه عاد بعد قليل إلى أصحابه وقد انصرفت جماعة الحسب والشرف والمال، عاد سعيدًا مشرق الوجه وأغلق حافظته من جلد الليزار - وهو بالسويسرية - السلاماندر كما قلت لك - وأخرج منديل العافية ومضى يمسح عرق الجهاد وسمعته يقول لأصحابه:

- لقد تعبنا وسئمنا يا جماعة.. ما رأيكم في (درنك) عند (أولد جيمى) ثم نتعشى في روف السفن ستارز؟.

ومضوا ونظرت في ساعتي، كانت السادسة والنصف، كانت الجلسة في قاعة الجمعية العامة قد بدأت من لحظات فمضيت أهرول إليها. وخطرت ببالى وأنا أشد في خطوى صورة المرأة القارحة الرابضة على ناصية الشارع بالطفل الغلبان على كتفها وهي تقفز كالشيطانة من الرصيف إلى السيارات التي وقفت في انتظار إشارة المرور الخضراء، ما أجمل النور الأخضر! إنه يفتح لك الطريق ويبعث ابتسامة الرضا على الوجه الوسيم ذى الحسب والمال. ويأذن لصاحبنا المضحى بأن يتناول (الدرينكس) عند أولد جيمى والعشاء في روف السفن ستارز.

والشاويش الطيب كان على حق في كل كلمة قالها.

وعم عطية بائع الخيار الوحيد الذى رحم الطفل وسقاه وأطعمه وبدل له ثيابه، هذا لن يذكره أحد، إنه مثلى ومثل قواميسى البالية صنعه

ابن منظور ومرتضى الزبيدى كلنا أشياء قديمة باليه واين نحن من المعانى الحديثة التى يتضمنها قاموس المعلوف. معلوف بماذا؟ لا أدرى، ولكنه هكذا: معلوف.

والطفل؟ هل يظل هكذا أبدًا عليلاً على الكتف؟ هل قضى عليه بأن يكون وسيلة للتسول؟ يبدو ذلك فى رأى هذه الطائفة من المتحمسين المجاهدين عند أولد جيمى والشقق الفاخرة فى جنيف ونيس. وليس هذا هو أسوأ ما ينتظر الغلام لأن من الممكن جدًا أن يعتاد المسكين هذه الحياة التعيسة ويصبح أسيرها، يصبح طفلاً ثم إنسانًا معوقًا، لأنه من المعروف أن الكثيرين من الأولاد أصبحوا معوقين لأن أهلهم أرادوا لهم ذلك: أسرفوا فى الإساءة إليهم وإهمالهم حتى تعطلت ملكاتهم وتلاشى طموحهم واستمرأوا حياة الضياع، مثل هذا التعويق يحدث لنوع آخر من المعاملة هو الإسراف فى التدليل، عندما يقضى الوالدان للطفل كل حاجة ويلبيان له كل نزوة، أحيانا يستمرئ الطفل ذلك ويكره العمل والواجب والمسئولية. ويشب شليل الذهن والإرادة، يشب معوقًا.

بالفعل هناك دلائل على أن أولئك المجاهدين يرمون بالفعل إلى تحويل الطفل إلى إنسان معوق، لأنهم يصرون دائمًا على أن يحملوه على الكتف ويربتون على ظهره قائلين: لا عليك يا بنى نحن سنجيئك بالاستقلال اتبعنا لا تستمع إلى غيرنا، نحن وحدنا المتحدثون باسمك، سنصل بك إلى ما تريد، استمر أنت فى البكاء ونستمر نحن فى الجهاد، والبكاء عندهم هو تلك القنابل التى توضع فلا الأسواق ومحطات الحافلات فلا بعض نواحى الأرض المحتلة يضعها من يضعونها ثم يولون هاربين، وقد تنفجر وقد لا تنفجر، ولكن الإسرائيليين يصلون إلى الفاعل فى كل حين. وبدلاً من أن يهلك كذا إسرائيليًا يهلك أضعافهم من العرب. وفى كل حالة يتردد صوت

المجاهدين من الخارج: نحن نعلن مسئوليتنا عن الحادث الفلانى استمروا أنتم تجاهدون من ناحيتكم ونحن من ناحيتنا، أنتم فى الداخل تعملون فى ظل الخوف والرعب والانتقام الرهيب. ونحن فى الخراج فى باريس ولندن وجنيف وروما ونيويورك.. المهم هو الثبات.. سننتظر ولن نكل أبدًا من الجهاد فى لأروقة هيئة الأمم.. لن نكل عن إلقاء الخطب والبيانات لقد انتصرنا بالأمس انتصارًا تاريخيًا، أصبح لمكتبنا فى فينا وضع السفارات وأخوكم المجاهد أبو فلان أصبح سفيرًا، تصوروا. سفير بكل شارات السفراء، الكاديلاك السوداء والراية ترفرف فى المقدمة، هل بعد هذا نصر! لقد اقتربنا من الهدف سيروا فى طريقكم ونحن فى طريقنا سائرون.

هذا والإسرائيليون بعد أن ضموا الجولان يستعدون الآن للضربة التالية، والمرأة الرهيبة جوئيلا كوهين توسوس فى أذن مناحم بيجين الذى لا تنطفئ فى قلبه جذوة الحقد على البشر وإذلال الإنسانية كلها. عقابًا لها على ما يزعم أنها صنعته بشعب الله المختار.

واللعبة يا سيدى سهلة ومريحة جدًا، لعبة حمل الطفل والتسول به، ومادامت المرأة تزعم أنها أم الطفل، تكسب من ورائه ما تشاء، فلماذا لا تحمله أيضًا أخواتها وبنات عمها من المجاهدات. نعم، وفى وقت ما نشأت جماعات الجهاد التى ترفض كل شيء وتحرص على أن يظل الغلام عليلاً على الكتف إلى الأبد، ومادام هناك محسنون يعطون، ومادامت هناك سيارات تقف عند الإشارة الحمراء فهناك عشر نسوان بالملاية اللف يقفزن من سيارة لسيارة وكل منهن تشحذ لحساب الطفل الذى تلقيه على كتفها وركاب السيارات عندهم فلوس وهم يعطون ويعطون، وقام اتفاق (جنتل - من) بين المتسولات، كلهن يتسولن باسم غلام يتيم مسكين واحد، لم يعد أحد يهتم بالنظر فى وجه الغلام، إن

المحسنين ينظرون فقد إلى الأيدى الممتدة أمامهم ويعطون ليستمر الجهاد.

وهل تحسنت حال الطفل شعرة؟ بالعكس هو فى كل يوم أسوأ. وحكومة المحتل الطاغية يسرها أن يكون هذا هو كل الجهاد الذى يواجهها، ولهذا فهى تمضى فى طريقها دون خوف ودون حياء، بالأمس ضمت القدس العربية واليوم ضمت الجولان وغدًا سيكون ما هو أسوأ، لأن قناع التذلل والمسكنة قد سقط من على وجه إسرائيل. والحية التى أدفأها الرجل الطيب فى يوم من الأيام رفعت الآن رأسها لتنهشه، وهو يستحق، فقد كان يعلم دائمًا أنها حية، ولكنه لم يكن ليكترث مادامت تنهش غيره: نهشت إنجلترا، وهى الحية التى أدفأت حية أخرى فلقيت جزاءها، ونهشت ألمانيا وفرنسا وكل أوروبا، والآن ذهبت فى الجرأة إلى مداها وها هى ذى رافعة الرأس لتنهش الولايات المتحدة نفسها، الولايات المتحدة تستحق، فإن الحية حية والسم سم، ومادام قد سرى فى أجساد الآخرين فلماذا لا يسرى فى دمها هى الأخرى؟.

وراكب السيارة الأصيل الموسر الحسيب لماذا يعطى؟.

إنه يعطى لأنه رجل طيب محترم وعنده مال وضمير، كانوا يقولون له: ادفع ونحن نجاهد، هات المال ولا تحاسب، ادفع ولك الجنة.

إنه يرضى ضميره ويستريح من مشكلة تثقل على صدره، وما دام للقضية أهلها، وماداموا يقولون له إن هذا كل المطلوب منه فليكن ما يريدون، ولكنه مل هذا الدور مع الزمن.

إنه يرى أن حالة الطفل تسوء وهذا النوع من الجهاد لن يؤتى ثمرة أبدًا، وفى ذات مرة عندما امتدت إليه اليد فتح باب السيارة وخرج وقال: هذا الطفل يموت شيئا فشيئا بين أيديكن.. هاتوا الطفل أعالجه معكن.

وقالت إحدى القارحات: بكل سرور تفضل وعالجه معنا.. ما هى وصفتك؟.

هذه هى وصفتى.. لقد وضعتها بعد طول تفكير فى أمر الطفل وفى أمورنا كلها. الطفل يموت شيئًا فشيئًا ولابد من إنقاذه..

وقرأت المتسولات الوصفة وقلن: عظيم.. هذه الوصفة هى الترياق، ونحن نؤيدها ونشترك معك فيها.. والموعد فى فاس.

واشتورت النسوان فيما بين بعضهن وبعض: ما الذى حدث فى الدنيا السيد المحسن الكبير سيأخذ الطفل منا ليعالجه، وكيف نعيش إذن. ومن أين لنا المال؟ وعاد إلى ذهنى مشهد حديثى مع المرأة عندما عرضت عليها أن تدع لى الغلام أرعاه، وعاد إلى ذهنى كذلك حديث الشاويش: المشكلة يا سعادة البيه ليست مشكلة الطفل، إنها مشكلة النسوان، إنك تحاربهن فى أرزاقهن عندما تحاول إنقاذ الطفل من أيديهن، وكلما كانت نيتك أحسن كن معك أكثر عنادًا ووقاحة، والله يا سيدى لو أنك قلت لها إنك ستربيه على نفقتك حتى يدخل الجامعة لقالت إنك نصاب خطاف أطفال. ولشهرت بك، وتسببت لك فى فضيحة، لأن رأس مالهن هو تعاسة الطفل.

عاد إلى ذهنى هذا كله، لأنه هو الذى وقع فى فاس ووقع فى القمة، على سمع الدنيا كلها وبصرها.

ولم تعرف النسوة للرجل الطيب أى توقير.

وكل ما كان تحت الملاية اللف أصبح خارجها.

وعاد الرجل إلى بيته أسفًا.

وعقب ذلك بقليل ولأن الإسرائيلى كان يعرف ما تحت الملاية اللف قبل أن يتكشف جرؤ على محاولة ضم الجولان.. هنا راحت السكرة وجاءت الفكرة.

لقد انكشف الغطاء، عرفت الدنيا كلها أن الطفل العليل الحقيقى ليس هو الذى على أكتاف المتسولات ولكنه فى أسر إسرائيل. وهى تريد هلاكه، لم يعد فى ذلك شك، وعندما قال لها الشرطى الأمريكى الذى طالما حماها. إياك أن تقتلى الغلام. رفعت رأسها لتنهشه.

□□□

هل انتهى سوق المتسولات؟ أرجو ذلك لأن الذى يحتاج إليه الطفل هو أن يرتاح كما يرتاح الأطفال. ويعامل بحب ورفق كما ينبغى أن يعامل الأطفال لكى يشب ويكبر ويصبح شابا ثم رجلاً سويًا.. إنه يحتاج إلى عم عطية بائع الخيار الطيب الذى أخذ الطفل ساعة من نهار فسقاه وغير ملابسه وابتسم فى وجهه واشترى له البسكويت، لو عاملوا كلهم الطفل كما عامله العم عطية لانتهت مشكلته لأنه طفل سوى ولا مرض فيه، بل هو طفل موهوب، كل ما يحتاج إليه هو أن يعامل بإحسان وأبوة حتى يشتد عوده، حتى يقف على أول طريق الحياة، على أول طريق الاستقلال. وهو وحده بعيدًا عن المتسولات - سيعرف كيف يسترد حقوقه كاملة، بذراعه وحدها سيصل إلى ما يريد إذا تركته المتسولات. إذا فارق بلا رجعة الكتف الحجرية التى يموت عليها شيئًا فشيئًا يومًا بعد يوم.. إذا كتب له ذلك وقف على أول طريق النجاة، أتدرى كيف؟.

الطريق واضح وإن كان عسيرًا.

لقد خاضته من قبل هذا الطفل أمم كثيرة، ونجحت وسارت فى طريقها، وقليل جدًا من أمم الأرض لم تعرف الاحتلال والغصب والعدوان.

وما سيفعله الفلسطينى عندما يدرج على الأرض وحده. ويحمل على كتفه البندقية هو ما فعلته كل الأمم التى ابتليت بالاستعمار ثم تخلصت منه.. والذى فعلته هذه الأمم يقوم على قواعد بسيطة وواضحة..

أولهـا أنـك إذا أردت أن تسـترد حريتـك فلابـد أن تسـتردها أنـت بنفسـك أنت وحدك. قد يساعدك الآخرون، ولكنـك سـتخوض معركتـك بمساعدتهم وبغيرها، أن المعركة معركتك والأرض أرضـك. وليس هنـاك إنسان يموت ليكسب أرض غيره.

من يريد أن يعطى فليعطك أنت، وأنت وحدك الـذى ستقاتل، ولـن تستعمل أرض غيرك. إن غيرك أضن بوطنه من أن يعـرض سـلامته مـن أجلك، كلهم يخدعونك، إذا قالوا لك غير ذلك. لن تخوض معركتك من سوريا أو من لبنان أو من الأردن.. لا أحد يقـوم علـى أحـراق داره لكـى ينقذ دار الجار، لقد جربها عبد الناصر سنة ١٩٦٧م فاحترق واحـترقت داره، إن أرض الله واسعة، وبلادنا كلـها صحـار، تستطيع أن تتدرب حيث تشاء، تستطيع أن تأخذ من السلاح ما تشاء.

أما من أين ستدخل إسرائيل وكيف ستدخل إسرائيل فـهذا شـأنك أنت.. إنه سر مـن أسـرارك لا يصـح أن يعلمـه أحـد غـيرك، إنـك لـن تستأذن من سوريا لتدخل أرض المعركة من ناحيتها، لأنها لن تسمح لك بل تستخدمك لصالحها هى، إنها لـن تـأذن لـك قـط فـى الدخـول مـن أرضها، لا تقع فى الخطأ مرة أخـرى، ولا تـدع المتسـولة تحملـك علـى كتفها لترتزق من ورائك.

إن حدود إسرائيل واسعة جدًا ولـن يصعـب عليـك الدخـول مـن أى مكان تريد، ومادامت قد دخلت دون أن تستأذن أحدًا فإن إسـرائيل لـن تقتص من أحد، لأنها لن تعلم من أين دخلـت، وإذا هـى علمـت فـهى ستعرف أنك دخلت على رغم الجار. وإذا كانت هى قد عجزت عـن أن تمنعك من الدخول فكيف تعاقب غيرها لعجزه عن منعك من الخـروج.. المهم أن تنقل المعركة إلى داخل إسرائيل.

وسبيل ذلك واضح، وهو أنك دخلت للقتال فهو دخـول بـلا عـودة، إنه دخول للموت.. مـن العبـث أن تدخـل لتضـرب ثـم تـهرب، لأنـهم

سيتابعونك إلى أى بلد تذهب إليه، وهناك فلسطينى ضرب وهرب حتى دخل الولايات المتحدة فقبضوا عليه هناك وأخذوه ليعاقبوه.

مادمت اتخذت قرار الجهاد فليكن هو قرار الموت.. ولا تؤمل فى النجاة قط، إذا فكرت فى النجاة فلن تضرب ولن تنجو.

ليدخل منكم إسرائيل عشرة ليموتوا. لو قتل العشرة خمسة إسرائيليين ثم استشهدوا، فإن النصر فى النهاية مضمون، فليست هناك دولة تحتمل طويلاً الحرب من الداخل.. أنها سم قاتل: جرام منه يقتل الفيل.. المهم كما قلت لك أن تنقل المعركة كلها إلى داخل إسرائيل، وأن يكون الجهاد جهاد موت، المجاهدون الذين ساروا على طريقة (اضرب واهرب) تبينوا أنهم ليسوا مجاهدين، وقد عاملهم العدو معاملة مجرمين، كل الدنيا تعاملهم معاملة مجرمين، وإنجلترا رفضت أن تعتبر مقاتلى الجيش الأيرلندى مقاتلين ماداموا يضربون ويهربون فإنهم ليسوا مجاهدين، وعندما اضربوا عن الطعام إلى الموت وماتوا فعلاً لم تغير إنجلترا موقفها، وكلنا نعرف حكاية بوبىساندز وأصحابه.

ذلك هو الطريق الوحيد أيها الأخ الفلسطينى، وكل طريق أخرى لن تؤدى بك إلا إلى مزيد من التعاسة لا تسمح لتسولة قط بأن تحملك على كتفها لتتسول بك، لا تطالب لأحدًا بأن يعرض بلده للنار من أجلك.. ولا يخدعك كلام فى الأمم المتحدة، ولا مجاهدون يتحدثون باسمك من غرف فنادق الدرجة الأولى.

ومن يريد أن يجاهد لا يتناول الدرينكس عند أولد جيمى أو يتعشى بعد ذلك فى مطعم السفن ستارز.

إن المجاهدين هم الذين يقاتلون داخل الأرض نفسها. خارجها ليس هناك جهاد، هناك تسول، هناك خداع، هناك مزيد من التعاسة، أما الجهاد فلا يكون إلا داخل الأرض.. إنك خارج الأرض فقط حتى تتعلم

كيف تستعمل السلاح، مادام السلاح معك ومادامت تعرف كيف تستعمله فلا ينبغى أن يعلم أحد قط ما تنوى أن تفعله، ستدخل أرض عدوك ستملأ بالرعب قلب عدوك. ستموت برصاص عدوك.

وسيموت بعدك آخرون مثلك وآخرون، وإسرائيل لن تعرف يومها ممن تنتقم، بل لن تعرف من تتهم، ستعرف إسرائيل يومها أنك ند لها، إنك تستطيع أن تقتلها وستسعى هى يومها لكى تتكلم معك.

ويومها ستقرر أنت وحدك لا أنت وغيرك.. ستقرر فى ظلام مخبئك لا فى قمة بغداد أو فاس ماذا تفعل.

لن تحتاج بعدها يا بنى إلى قمم لأنك أنت ستصبح القمة.. وسل إخوانك الجزائريين الذين قاموا بمعركتهم قبلك، وسلنا نحن فقد خضنا معركتنا مع الإنجليز من قلب بلادنا، يومها يا بنى لم نطلب معاونة من العالم العربى.

لأن العالم العربى نفسه لم يكن موجودًا.. أو لو يكن قد وعى أنه موجود.

(٦)

فيران وناس*

في بحثنا عن أسباب جائحة الفيران اتهمنا كل شيء من نقص المبيدات إلى نقص طمي النيل. ولكننا لم نذكر السبب الرئيسي لأننا لا نجرؤ على مواجهة أنفسنا به وهو القذارة.

فنحن صراحة شعب لا يحس بالنظافة ولا نتأذى بالقذارة، والواحد منا يشترى أفخر السيارات ويوقفها بين أكوام الزبالة ويتهم الآخرين، وفى أكوام القمامة تتربى الفيران ، والريف عندنا مقلب زبالة هائل ، والناس هناك تعودوا على أن يقاسموا الفيران جحورها ، وقد تتحقق مكافحة الفيران بفوسفيد الزنك أو بالراكومين. ولكنها تكون أولاً بالمكنسة وعربة القمامة والماء والصابون. والفيران لا تعيش قط في مكان نظيف ، ولا يحق لنا بحال أن نشكو الفيران لأن البيئة التي أنشأناها بانعدام إحساسنا بالقذارة هي بيئة فيران. ونحن في الحقيقة نزاحمهم في رزقهم لأننا ارتضينا لأنفسنا أن نعيش في البيئة التي لا يعيش فيها إلا الفيران.

كل الذين يمارسون الفن في إخلاص يعيشون في وحدة دائمة. إنهم وحدهم مع الناس ووحدهم بعيدًا عن الناس يحبون الناس ولكن من بعيد يخدمون الناس وكأن الواحد منهم متبرع يعطي ويتستر تحت اسم «فاعل خير» ومن غرائب أقوال جيته أنه سئل: هل تشعر بالوحدة ؟ أجاب: نعم عندما أكون من الناس وكان لودفيج فإن بيتهوفن يقضي بعد الظهر وحده في مقهى صغير في قريته وكان الناس يرونه في ركنه جهم الوجه صامتًا فيحسبون أنه في حاجة إلى من يؤنسه ويقحمون أنفسهم عليه ، فكان يقول: تريدون أن تؤنسوني ؟ فابتعدوا عني إذن..

* نشرت هذه المقالة في ٥ سبتمبر ١٩٨٢م .

هكذا آنس بكم أكثر. وكان أبو العلاء المعرى أعظم «إنسان» في تاريخ الحضارة العربية ولكي يحتفظ بإنسانيته صافية فرض على نفسه وحدتين: واحدة داخل الأخرى فلزم كسر بيته وأنس بالظلام. ومن الظلام أخرج النور. وكان المتنبى أشعر من أبى العلاء ولكنه أنفق عبقريته على عتبات حكّام لا يساوى أى واحد منهم بيتًا من شعره، ولكن أبا الطيب أذل شعره وباع فنه بالثمن الرخيص. ولهذا فإن لشعره فى الأذن دويًا وفى السمع حلاوة ولكن وقعه فى القلب مرير.

ومن بين أدباء الغرب المعاصرين أفضل جون شتاينبك لأنه أنشأ فى وحدته عالمًا كاملاً دافق الحيوية. ووحده شق طريقه بالجهد والإخلاص والصمت ، وقبع فى قريته «ساليناس» يكتب منها ويراسل الناشرين ، وعندما قفز بروايته البديعة: شقة تورينا أو تورينا فلات إلى الصدارة. وتوالت عليه الدعوات والتكريمات. كتب إلى ناشره يقول: إن كنت تقدرنى حقًا فاحمنى من هذا البريق الذى يجعلنى أكره الناس. وأنت تعرف أننى أحب الناس لأننى بعيد عنهم ، ومن سطوره المضيئة فى روايته «ثم غاب القمر» وقد نقلتها إلى العربية قول امرأة واحد من ضحايا الحرب الذين قتلهم الألمان إننى وحيدة جدًا من بعده والوحدة تقتلنى ! ويرد عليها العمدة قائلاً: إذن فأنت لم تكونى تحبين زوجك ، إذا كنت وحدك فأنت تعيشين معه ومادمت تعيشين معه فهو حى لم يمت.. فلماذا تريدين قتله؟.

ومن روايات شتاينبك البديعة رواية صغيرة لا أزال أعود إليها طلبًا للأنس وبين الحين والحين اسمها «عن الفيران والناس» وليس فى الرواية فيران لأن الناس فى أمريكا لا يأذنون للفيران بأن تكون بطلة رواية أو شخصية الموسم لأنهم فى نظر أنفسهم أعظم من الفيران ، والفيران لا يعظم شأنها إلا إذا تفوقت على الناس ، وأثبتت أنها أقوى وأصلح للبقاء منهم.. هذا هو لباب مأساتنا اليوم مع الفيران ، لقد أثبتت

أنها أقوى منا وأصلح للبقاء. وهذه الدنيا ميدان صراع بين الأحياء. والبقاء للأقوى. لأن الله خلق الفأر كما خلق ابن آدم. فأما الفأر فقد نظم حياته وخاض معركته وغلبنا فلماذا نشكو؟ إن ذلك يذكرني بكلمة قالها رجل من بناة الزراعة المصرية في الجيل قبل الماضي وهو محمود باشا شكري وقد عملت معه شهورًا في مطلع حياتي. فكنت أراه يركب حمارًا من الفجر ومن ورائه ناظر الزراعة والخولية ويقف عند شجرة شجرة فإذا رأى شجرة جوافة أكلت الفيران من ثمرها قال لناظر الزراعة ما هذا يا ناظر التنابلة؟ ويبدأ حضرة الناظر يقسم بالأبالسة مبرئًا نفسه فيقول الباشا: أنت هنا وكل رجالك لتحارب الفيران ودودة القطن وكل الآفات. فكل ما تأكله محسوب عليك: مخصوم منك خمسون قرشا! وشجرة بعد شجرة يستهلك الخصم راتب الرجل فيقول: وبعدين؟ من أين سآكل أنا وأولادى يا سعادة الباشا؟ ويرد الباشا: من الفيران! لو أنك ناظر زراعة جدع لما أكلت الفيران رزقك، اعرف خلاصك. ماذا أعمل لكم وأنتم تشكون من كل شيء حتى البراغيث تشكون منها مع أنني قلت لكم ألف مرة إن البرغوث لا يعيش في بيت نظيف؟ ماذا تريدون؟ أن أنظف لكم بيوتكم؟ أن أحمى لكم أولادكم.. أن أغسل لكم ثيابكم؟ كفاية عليكم الشاى والمعسل وأحضان نسوانكم يا ناظر البلاوى. هذه الفيران أنتم تربونها بالكسل والإهمال وهل كان من الممكن أن يعيش في هذا الغيط فأر إذا كنت أنت ورجالك تدورون على الأشجار والزراعات يوما بعد يوم كما أفعل!

وقبل أن أنسى أقولك إن رواية «عن الفيران والناس تدور حول إنسانين متناقضين فرضت عليهما ظروف الحياة أن يعيشا معًا وقد أبغض كل منهما الآخر وصار ينظر إليه وكأنه فأر يعيش معه في البيت والفأر عجيب من هذه الناحية. فهو يعيش معك في بيتك ويشاركك عيشتك وطعامك ولكنه لا يريد أن ينشئ معك أى علاقة، فلا يكاد

يسمع حسك حتى يختفى فإذا سكت حسك وهدأت حركتك خرج يمارس حياته فهو يعيش معك ومنك وعليك ولكنه يرفضك، لأنه لو قبلك فلا مفر له من أن يسمح لك بالتحكم فى حياته. كما فعلت مع القط والكلب ، فالقط أيضًا حيوان طفيلى مثله فى ذلك مثل الفأر ولكنه تعايش معك وأنشأ معك ألفة وصداقة، وهذه الألفة جعلتك تتحكم فيه فأنت تكره القطط الإناث وتعدمها لأنها تتكاثر ، وأنت تفضل القط الذكر لأنه لا ينجب بل أنت قد تعقمه بعملية جراحية حتى يعيش لك وحدك وهذا ثمن التعايش الذى قبله القط ، أما الكلب فقد تحكمنا فى حياته حتى صنعنا أصنافًا من الكلاب تطابق مطالبنا فهناك كلاب للسيدات لا تصلح إلا للجلوس على الحجر ، ولم يبق لها من خصائص الكلبية إلا الاسم. وهناك كلاب صيد تأتينا بالطائر المصيد دون أن نأكله. وهناك كلاب سباق دربناها على أن تجرى وراء أرنب آلى وهى تعرف أنه ليس بأرنب أصلاً ، ولكننا أفسدنا طبعها وتحكمنا فيها بحسب أهوائنا.

هذا كله رفضه الفأر: رفض التعايش معنا والتفاهم مع جنسنا حتى يحتفظ بشخصيته فأرًا محترمًا ، حتى الطعام الذى تضعه فى الأركان لا يأكله لأنه يعلم أننا لا نفعل شيئًا إلا حسب مزاجنا وإذا كان مزاجنا أن نضع فى هذا الطعام سمًا وضعنا السم لهذا فهو يرفضه أصلاً، ويفضل عليه الطعام الذى يسرقه رغم أنوفنا فهذا قطعًا ليس فيه سم.

والإنسانان اللذان يعيشان معا فى رواية شتاينبك ينظر أحدهما إلى الآخر نظرته إلى الفأر. وأنت لا تعرف من منهما الإنسان ومن منهما الفأر، وهذا بدوره يأذن لنا فى أن ننظر إلى مشكلة الفيران من وجهة نظرها هى ، فإن الفأر لابد أنه يظن أنه هو الأصيل ونحن الطفيليون ، وإذا كان الله قد خلق الأرض للأحياء جميعا فلماذا يريد الإنسان أن ينفرد وحده بالحياة ؟ وإذا كانت هناك شجرة جوافة فلماذا يبيح

الإنسان لنفسه أن يأكل منها ويحرم ذلك على الفأر ؟ ولماذا يريد الإنسان أن يعيش أولاده جميعًا ويموت أولاد الفأر جميعًا ؟

وإذا كان الإنسان يريدها معركة بقاء بينه وبين الفيران فقد قبل الفأر المعركة وخاضها بسلاحه ، وللفأر سلاحان هما أمضى من كل سلاح ، الأول حيوية عجيبة تتحدى كل صنوف الموت ، ثم قدرة على الإنجاب رهيبة حقًا فإننا إذا أعدمنا ٨٠٪ من فيران هذه السنة فإن العشرين فى المائة الباقية تبذل أقصى جهدها لتكون مائة فى أول السنة القادمة والفأرة الواحدة تستطيع أن تلد فى العام ثمانين فأرًا.

وما رأيك فى مخلوق يأخذونه ويصبون فى حلقه سما ثم يلقون به فى التواليت ويشدون السيفون وتمضى به المياه المتدفقة، من ماسورة لأنبوب ومن أنبوب لماسورة مسافة تسعة كيلو مترات ويخرج بعدها الفأر الشرير حطيمًا، فلا يكاد يستقر على الأرض دقيقة حتى ينتعش وينهض ليلتهم وينهش ويقضم ليعوض ما فات، وقد غسلت مياه المجارى التى مرّ فيها أمعاءه وكتبت له النجاة من السم.

وهذه هى النقطة التى أريد أن أصل إليها فيما يتعلق بموقفنا نحن المصريين من الحياة، إننا ننسى دائمًا أنها معركة بقاء أو موت مع الفيران أو مع الطاعون أو مع إسرائيل أو مع الإنجليز أو الأتراك، فهى دائمًا معركة والفوز للأقوى، وكل أعدائنا الذين دخلنا معهم فى صراع أخذوا الصراع جدًّا فكسبوا وخسرنا، ومعركتنا مع إسرائيل لم نأخذها جدا إلا مرة واحدة. كان ذلك فى أكتوبر ١٩٧٣م وعندما أخذناها جدًا انتصرنا، لقد حطمنا لإسرائيل ٤٠ طائرة منها ١٩ فانتوم فى يومين، فى ستة أيام حطمنا لها ٤٠٠ دبابة، يومها زلزلت أقدام إسرائيل وشعرت أن المصريين رجال وليسوا فيرانا، يومها بكى موشى ديان وركع سفير إسرائيل فى واشنطون تحت قدمى كيسنجر، وللمرة الأولى شعرت الولايات المتحدة أن هنا على ضفاف النيل أمة صحت بعد نوم

طويل. وكل قوة أمريكا وضعت يومها لكي تقف معنا لأن الدنيا تحب المنتصرين، ووزير خارجية أمريكا هنرى كيسنجر طار إلى بلادنا لكي يتفاهم مع الرجال، كان أنور السادات على القيادة إذ ذاك، وتلك تحية.. متواضعة له، والرجل المنتصر يومها كان يعرف أن النصر لابد أن تعقبه مفاوضات لكي يأخذ المنتصر حقه، وصراع الأمم حرب ومفاوضات.. حرب وسياسة ، وإلى ذلك الحين كان العرب يأخذون في صراعهم مع إسرائيل طريقا شاذة لا هى حرب ولا هى سياسة إنها طريقة الهروب من المعارك ومن السياسة معا. كنا نسميها باللا سلم واللا حرب وهى عبارة ليست من لغةٍ البشر. إنها من لغة الفيران لأن الفأر لا يقاتل أبدًا إنه يحارب الفناء بالهرب ودخول الجحور والإنجاب، والذين رفضوا الجلوس إلى مائدة المفاوضات وسخروا من محادثات الكيلو ١٠١ وفك الاشتباك الأول والثانى كانوا يتبعون سياسة الفيران، وسياسة الفيران، هى التى قادت إلى مصيدة بيروت، ومصيدة بيروت كانت عارًا على إسرائيل ولكنها كانت ذلاً وعارًا علينا، لقد حيينا الرجال الخارجين إلى ملاجئ جديدة وكأننا نصلى صلاة جنازة، وبعد رحيل الأسرى أقامت إسرائيل لنفسها نائب ملك على لبنان، ونائب الملك يسمى بشير الجميل. إنه نائب الملك بيجين ونائب الملك ريجان، وما كنا نتحاشاه من سنوات يقع اليوم ، لبنان يتحول إلى لبنانين ، والمعركة انتهت على طريقة الفيران، كما تنتهى شيئًا فشيئًا معركة أفغانستان التى أقام عليها جلالة القيصر ليونيد بريجنيف نائب ملك يسمى بابراك كارمل.

لقد تتبعت أخبار استسلام بيروت والدمع ملء عينى لأن هذا المشهد ليس جديدًا علىّ، فقبل ٤٩٠ عامًا وثمانية أشهر أى فى الثانى من يناير ١٤٩٢م كان فرناندو وإيزابيلا يحاصران غرناطة لكى يحكما الحصار على المعقل الأخير للمسلمين. ابتنيا مدينة تسمى سنتافى أى العقيدة المقدسة، وفى صباح الثانى من يناير هذا خرج أبو عبد الله آخر

ملوك غرناطة التعساء مستسلمًا وسلم رايته ومفتاح المدينة إلى المنتصرين، يومها أكرموه كما تكرم رفات الأموات وقالوا له: تخير المنفى الذى تريد أيها الملك الصغير ونحن نوصلك. وخرج الرجل وحاشيته منكس الرأس، وسار وكأنه نفسه جنازة، وطريق المنفى إلى مدينة وادى آش، كان طويلاً، ولكنه على أى حال أقصر من الطريق إلى اليمن الجنوبية، ما من مرة قرأت خبر تسليم غرناطة إلا سألت نفسى: ماذا جرى للرجال؟ إن أبا عبد الله هذا كان آخر رجل تعرفه من سلالة صحابى جليل هو سعد ابن عبادة الذى شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وجاد بمعظم ما له فى سبيل الإسلام. ما أجمل البداية وما أسوأ النهاية، والفرق كلمة واحدة، فى البداية كان الرجال وفى النهاية كان الفيران. بين البداية والنهاية تسعة قرون لأن سنة ١٤٩٢م هى سنة ٨٩٧ هجرية، والرجل الذى سلم غرناطة لم يطمئن فى منفاه تحت رحمة عدوه، فكتب إلى سلطان المغرب أبى عنان خطابًا فى نحو عشرين صفحة يعتذر فيها عما أضاع، وخلاصة العشرين صفحة هى: لقد ضيعت غرناطة لأننى فأر حقير، فهل تسمحون لفأر حقير بأن يجد جحرًا فى بلادكم يموت فيه؟ وسمحوا له وأقبل يجلله العار ولكنه لم يشعر بالعار لأن الفيران لا تعرف العيب. وككل فأر فى التأريخ اصطحب معه تسعًا من جواريه! ألم أقل لك إن الفأرة تنجب فى السنة إذا أرادت ٨٠ فأرا؟ أتدرى كم زوجة كانت للملك فرناندو الكاثوليكى المنتصر؟ واحدة هى إيزابيلا.. امرأة بألف رجل. أتدرى كم طفلاً أنجب فرناندو وإيزابيلا؟ بنتا واحدة هى خوانا التى جنت فيما بعد وسميت بخوانا المجنونة، وخوانا هى أم واحد من أعظم حكام أوروبا هو الإمبراطور شارل الخامس أو شرلكان، وشرلكان أنجب ولدين الملك فيليب الثانى الذى حاول أن ينتزع البحر المتوسط من أيدى المسلمين. وأخاه غير الشرعى الأمير خوان يوستريا الذى كسب نصر ليبانتو سنة ١٥٧١م وانتزع سيادة البحر

المتوسط من الأتراك العثمانيين. هـذا هـو مـا يخـرج مـن صلـب الرجـال والنساء الذين يصنعون التاريخ. أمـا أبـو عبـد الله الصغيـر ملـك غرناطـة المنهـزم فقد أنجب من نسائه التسع فيرانا بـلا نهايـة ، وعلـى جحـور الفيران حبس شيخ أندلسى يسمى ابن عاصم وقرأ تلقين الموتى، والتلقين كتاب عنوانه «جنة الرضى (بضم الجيم) فيما قدر الله وقضى» والعنوان جميل، ولكنه تلقين قرىء على قبور فيران لو كانت للفيران قبور، أمـا العـبرة فقـد نطـق بـهـا شـوقى عندمـا قـال يصـف مشـهد خـروج بقايـا الأندلسيين.

آخر العهد بالجزيـرة كانت
بعد عرك من الزمـــان وضرس
فتراها تقـــول: رايـة جيش
باد بالأمس بـــين أســر وحبس
ومفاتيحـهـــا مقاليد ملك
باعهـا الــوارث المضيع ببخس
خرج القـوم فى كتائب صم
عن حفاظ ، كموكب الدفن خرس
ركبوا بالبحار نعشا وكانت
تحت آبائهـم هى العـرش أمس

سبحان الله! ماذا يصف شوقى؟

غرناطة أم بيروت؟ خروج أبى عبد الله أم خروج الفلسطينيين؟

سيان، فإن الفيران لا تصنع التاريخ ولا هى تقرأ الشعر. إنـهـا تصنـع فيرانا.

ولكن هل الفيران وحدها هى التى تصنع الفيران؟

لا والله ، إنما الناس أيضًا تصنع الفيران.

وهذه الفيران التى تلتهم مزارعنا نحن الذين صنعناها.

وانظر إلى أى قرية مصرية وقل لى بصراحة: هل الذين يقبلون العيش فيها ناس أو فيران. أنا شخصيًا أقول لـك إنـه لا يوجـد إنسـان يحـترم إنسانيته يرضى بأن ينام فى دار من الطين والبوص والسعف كلها شقوق وجحور وندوب: ولا ينـهضن إلى إنسـان ويحـاول المزايـدة والدفـاع عـن الفلاح ، فما أظن أحدًا فى هذا البلـد يأسـى لحـال الفـلاح كمـا آسـى، والمسألة أيها الإخوة ليست بلاغة ألفـاظ ولا التمـاس أعـذار ، إنمـا هـى مسألة البحث عن الخط الفاصل بين الفيران والناس، أهناك حـد أدنـى تنتـهى عنـده الآدميـة ، ورجـل يقـف فـى الطـابور عنـد مركـز توزيـع السجاير فى القرية ليحصل على علبة سجاير سوبر ثم يشربها فى جحر فيران هو حالة نفسية تستدعى العـلاج، لأن الأمـر هنـا لا يتوقـف عنـد بيت من طين يعيش فيه رجل يتفـرج علـى التليفزيـون ويدخـن السـوبر ويصنع كل عام طفلا، بل هى مسألة بلد يتحول كله تحولاً عجيبًـا مـن سيئ إلى أسوأ ، كأنه تخطى الحد الفاصل بين الفيران والنـاس.. ونحـن هنا لسنا أمام مشكلة فيران بل أمام مشكلة بلد بأسره. والموضـوع لا يـهم وزارتى الزراعة والصحة بل هو موضوع وزارتى التربية والتعليم والثقافـة أيضًا، وليست أنا أول من اكتشف هذه الظاهرة وكتب فيها. واقـرأ هـذه السطور التـى كتبـها أنيـس منصـور فـى واحـد مـن مواقفـه بتـاريخ ١٦ أغسطس ١٩٨٢م :

«وهذا الزحام يجعل النـاس أكـثر اسـتعدادًا للعـدوان علـى الآخريـن لأنهم فى حالة دفاع عن النفس وعن الجسم وعن المساحة الصغـيرة فـى الطريـق والطـابور والأوتوبيـس ، وهـذا الشـعور يسـلب النـاس شـعورهم بالأمان ، ولذلك يتوجس النـاس مـن النـاس ، وتكـون العلاقـات مجـرد حسن جوار ووقف إطلاق النار لا محبة ولا مودة ولا صداقة وإنمـا زمالـة وتعايش معًا تمامًا كما يتجاور الناس فى الأسانسير أو تتلاصق السيارات فـى الموقـف أو تتكـدس صنـاديق الزبالـة فـى الشـوارع أو المتـهمون فـى

القفص أو الجثث فى المشرحة، ولأنك لا تنظر عادة إلى وجوه الناس فإنك لا تميز أحدًا عن أحد ، فكل واحد ليس إلا حبة عدس فى شوال أو علبة صفيح فى صندوق. كل الناس مثل كل الناس ، وكلهم ليسوا أصدقاء لأنك فى زحام الحركة والمشاعر ، وفى ضباب الهموم وتراب القرف ، لا تستطيع أن تميز بين العناق والخناق. ولا بين الذى يميل إليك والذى يميل عنك ، ولا بين الذى يذهب إليك والذى يذهب عنك ، فوجوه الناس مثل ظهورهم وهى جميعا تستحق الحرق» .

يا إلهى! هذا وصف ناس فى مدينة أم موكب فيران؟!

هل هذا مقال أو رثاء «بوست مورتم»؟!

إنه فعلاً رثاء أو تلقين على قبر ميت.

وإذا صدق إحساسي ، وكان كلام أنيس منصور تلقينا بعد الموت (بوست مورتم) ، فإليك اليوتوبسيا أى تشريح الجثة. قام به طبيب فى الطب والفكر هو يوسف إدريس. فقد أخرج الجثة من المدرج وشرحها. وإليك جزءًا من التقرير الذى كتبه ، ومن أسف أننى لا أستطيع أن أورده لك على تواليه فهو عندك فى أهرام ٢٢ أغسطس ١٩٨٢م.

«الواقع أبدًا لا انفصال بين الحادث فى لبنان والحادث لنا وإذا كان الأطفال يقتلون فى لبنان وكذلك النساء فإن الأطفال فى العالم العربى يرضعون أفكارا سقيمة أشد فتكًا من القنابل العنقودية ، والنساء فى عالمنا العربى مقتولات روحًا وجسدًا وكرامة، فكما أن الواقع واحد فالمعركة أيضًا واحدة ، وإذا كانت الأقلام كلها فى أنحاء العالم قد أجمعت على استنكار الموقف العربى فهذا الموقف لم يأت من فراغ ، إنه نتيجة محتمة لفراغ العقل العربى وبالتالى انعدام الإرادة العربية ، فالإرادة والفعل والموقف أشياء لابد أن تنبع عن فكرة وتفكير وإعمال هائل للذهن ، فإذا لم يكن هناك ذهن يعمل وإذا كان العقل قد خوى

إلا من التفكير في سد الغرائز وضمان المستقبل الفردى ، إذا كانت دائرة الأفكار قد ضاقت حتى لم يعد المواطن فى مصر أو فى غيرها مـن البـلاد العربية يرى إلا ما حوله وأمام أقدامه مباشرة فكيف نطلب منه أن يـرى عدوه بله أن يقاتل أو يقاوم عدوه»؟.

وفـى رأى يوسـف إدريـس أن هـذا التحـول المخيـف فـى شـخصية الإنسان العربى يرجع إلى غياب الحرية والديمقراطية مـن حيـاة العـرب جميعا منذ كانت عصور الاستقلال.

فالديمقراطية تخلق الإنسان الواعـى الـذى يفكـر بنفسـه مسـتقلاً عـن غيره ، الذى يرى طريقه ويتجه إليه وفى غياب الديمقراطية تنشأ عقلية القطعـان أو نفسـية الجماعـات (مـاس سـايكولوجى) وهنـا نجـد النـاس يسيرون فى حياتهم على الصورة الرهيبة التـى يصفـها أنيـس منصـور ، ويقول يوسف إدريس: «ونظرة واحدة لفوضى المرور فى شـوارع القـاهرة تعطيك فكرة واضحة أن جماعة السائقين سواء أكانوا محـترفين أم هـواة جماعة غوغائية محضة كلـها أفعـال وردود أفعـال صبيانيـة وأنانيـة لا تجدها إلا عند الأطفال (أو الفيران؟) إنه أيضًا نوع مـن سـلوك الجماعـة الناتج عن فكر جماعى متخلـف لا يرتـد إلى النظـام تمامـا كالأطفـال إلا برادع قذى عينى أو غرامة أو حبس ، فى حين أن الإنسان الحر الناضج ليس فى حاجة إلى أن يخاف ليتبع القانون إنه يتبع القانون إيمانًا منـه بحق الناس عليه ، وهذا هو السلوك الناضج الناتج عن فكر ناضج..

أنيس منصور ويوسف إدريس هنا على حق.

وإنه لمن غرائـب الظواهـر أن التعليـم أيـام الإنجلـيز ودنلـوب أخـرج طلعت حرب والعقاد وطه حسين والمازنى وسلامة موسـى وسـعد زغلـول وتوفيق الحكيم ، والباشا الذى كان يفحص الأشجار والزراعات يوما بعد يوم ، والتعليم فى عصور الاستقلال فى العالم العربـى كلـه أخـرج كتبـه

أرشيف لا يحسنون إلا القيد فى السراكى والحفظ فى الملفات والصادر والوارد.. النمل والصراصير والعنكبوت.. كما يقول نجيب محفوظ فى ثرثرة فوق النيل ، والتاريخ الذى أعلمه للطلاب لا يبقى منه فى أدمغة الطلاب إلا ما بقى فى ذاكرة عم أنيس أفندى المسطول الذى أخرج من الدرج محبرة وراح يملأ القلم. عليه أن يعد البيان من جديد. حركة الوارد لا حركة البتة فى الحقيقة. حركة دائرية حول محور جامد ، حركة دائرية تتسلى بالعبث ، حركة دائرية ثمرتها الحتمية الدوار، فى غيبوبة الدهور تختفى جميع الأشياء النمينة ، من بين هذه الأشياء الطب والعلم والقانون والأهل المنسيون فى القرية الطيبة والزوجة والإجنة الصغيرة تحت غشاء الأرض وكلمات مشتعلة بالحماسة دفنت تحت ركام الثلج ولم يبق فى الطريق رجل وأغلقت الأبواب والنوافذ وثار الغبار لوقع سنابك الخيل وصاح المماليك صيحات الفرح فى رحلة الرماية كلما عثروا على آدمى فى مرجوش أو الجمالية أقاموا منه هدفًا لتدريبهم ، وتضيع الضحايا وسط هتاف الفرح المجنون.. وهذه سطور رائعة من قلب نجيب محفوظ.

وصورة المسطول هذا الذى دار رأسه من القيد فى دفاتر الصادر والوارد قفزت إلى ذهنى أكثر من مرة وأنا ألقى محاضراتى فى التاريخ ، فأنا أحاول أن أفتح بجهد الموت أذهانا أقفلت تمامًا من أكثر من ثلاثين سنة حتى أصبحت توابيت ، وأنا أشرح للطلاب معنى حركة التاريخ لكى أخرجهم من الخنادق التى تترسوا فيها ، ويرفع طالب إصبعه ويزدهينى الفرح وأقول: أخيرًا فتحت تابوتا ، ويقف الطالب ويقول: يا أستاذ الكلام الذى تقوله هذا سيجىء فيه سؤال؟ وتنهار آمالى كلها ، وأجلس فى تؤدة.

وانظر.. إننى لا أرى طالبًا بل فأرًا واقفًا فى طابور سجاير السوبر ، وأنا مع الأسف بائع السجاير ، والسيجارة التى أبيعها اسمها ليسانس آداب سوبر ، يضعها الفأر فى منقاره ويمضى يطالب الدولة بوظيفة ،

والدولة لا تعطيه وظيفة إنما إعانة أو بدل تعطل ، ولا يكاد حضرته يطمئن إلى أن اسمه قد تدون فى سجل المستحقين فى الحق المعلوم الذى قال الله إنه حق للسائل والمحروم ، حتى يطالب بشقة يتفرغ فيها لصنع فيران،

وبعد.. فقد أصبحت حياتنا كلها مواجع.

مواجع تبدأ من ساعة تفتح عينيك في الصباح إلى ساعة تغلقها فى منتصف الليل ، وقد كنا فى الماضى نستقبل اليوم بشىء جميل يسمى طبق الفول ، ولكن طبق الفول اليوم أصبح طبق حصى وسوس ، وبائع الفول الذى كان فيما مضى إنسانًا لطيفا شجى الصوت أصبح اليوم رأسماليًا يكلف قدرة الفول خمسين قرشا ويبيعها بخمسة جنيهات ، وهو يبيع فى اليوم أربع قدور ، وصافى ربحه يا مولانا فى اليوم خمسة عشر جنيها على أقل تقدير وهذه ٤٥٠ جنيها أى ضعف مرتب الأستاذ الجامعى ، وأكثر من مرتب الوزير. والغريب أن الوزير نفسه مازال يضع بائع الفول فى قائمة الكادحين المطحونين ، وهو نفسه الوزير أقصد – أول المطحونين.

وأنت لا تدرى من أى المواجع تشكو؟

مواجع الزبالة التى تتعالى فى الطرقات ، أم مواجع المواصلات التى أصبحت مرضًا متوطنًا ، أن مواجع الفيران والناس؛ أم مواجع اللطمة المخزية التى تلقيناها فى لبنان ، أم مواجع العرب الذين حكموا على أنفسهم بالذل والهزيمة والموت قبل أن يحكم عليهم الزمان؟!

يأس قاتل يكاد يحطم الرأس والبدن والروح ، وأنا واقف أقاوم ولا أريد أن أستسلم ، لأنه لا يدخل عقلى كيف ندع غرناطة تسقط ونحن العرب والمسلمين ملايين . فتجيء مأساة المجاهدين فى لبنان وأراهم يا ولداه يعاملون معاملة محكوم عليه بالإعدام ، تفضل جلالة

الملك رونالد ريجان فأصدر أمرا بتخفيف الحكم عليه وجعله نفيًا مؤبدًا.. ويمر الجيش الكسير مطوى الرايات فى قناة السويس فى طريقه إلى اليمن الجنوبية ويهتف المساكين! ثورة ثورة حتى النصر!.

أى ثورة أيها العزيز وأى نصر؟! ألم تفهم بعد أنك لن ترى هذا النصر بعينيك ، لأن أنصارك وهم نحن نسوا طعم النصر لأنهم لم يذوقوه من أيام سليمان بن عبد الملك؟!

هل هى مواجع سقوط غرناطة أو آلام سقوط بيروت أو ويلات نائب الملك بشير الجميل وصاحبه بابراك كارمل نائب الإمبراطور بريجنيف أو هى مواجع العرب الذين سيعالجون مأساة لبنان بنفس الطريقة التى عالجوا بها مأساة فلسطين: صلاة الغائب تقام مرة فى الخرطوم ومرة فى فاس؟ دائما يصلون بعيدًا جدًا عن مقبرة الفقيد.

وأخونا أمين عام المؤتمر الإسلامى يهنىء نفسه بأنه عقد مؤتمرًا ناجحًا لإنقاذ أمة الإسلام فى يامينا عاصمة النيجر. وهو يعرف أن أهل جمهورية النيجر كانوا يكونون أسعد بكثير لو أنفق أموال هذا المؤتمر على حفر بئر يشرب منها النيجيريون لأن المساكين يموتون من العطش والجوع! تصرف عقلاء هذا أم أوهام مساطيل؟.. ومعذرة عن إلقاء السؤال فإنما أنا مؤرخ حولنى تاريخ العرب إلى كاتب فى مكتب صحة يقيد الوفيات.

وصفحات دفتر القيد العريضة جعلتنى أخلط كل شيء بكل شيء وأنا معذور! وأحيانًا وأنا أقرأ الجريدة أشعر كأننى أقرأ أن الأمير المملوكى بيبرس الجاشنكير خرج يتمرن على الرماية فى ميدان التحرير، أو أن أبا منصور الحلاج قد بعث من قبره يصيح ما فى الجبة إلا الله! ولبس طيلسانًا وامتطى حصانًا ووضع على رأسه عمامة وزنها قنطار وسمى

نفسه آية الله روح الله ، ومضى يتدرب على أبهة الخلافة علـى ضفتى الخليج.. أم هى فيران الدقهلية والشرقية قررت أن تصطاف على شاطئ المنتزه فى الإسكندرية؟

فيران وناس؟

لا والله إنما هم ناس أصبحـوا فيرانـا وفيران جاء دورهم ليصبحوا ناسًا ، وحركة التاريخ لا تتوقف ، وإن لم يفهمها تلميذى صاحب سيجارة السوبر فى المنقار. أم هم قومى العرب فى حاجة إلى رأس جديد؟ لأن رأسهم الذى يحملونه على أكتافهم لم يعد فيه مخ. لقد غسلوا مخهم ألف مرة بعد أيام الراشدين حتى لم يعد هناك مخ على الإطلاق..

والرأى عندى أن يضيف مؤتمر فاس إلى قراراته قرارًا أعتقد أن فيه الشفاء.. التعاقد مع شركات الإلكترونيات فى اليابان على صنع مخ عربى جديد يعمل بالكوارتز لأن المخ العربى العتيق قد تحول من ألف سنة هجرية إلى طحالب فى فجوات صخور الجماجم فى أعماق ليل الزمان ، ومعذرة يا أخى نجيب محفوظ إذا غيرت بعض ألفاظ عبارتك الرهيبة فى الثرثرة فوق النيل. والنيل كان يومًا نهرًا عظيمًا فجعلناه ترعة صرف صحى لأننا فيران. □

(٧)

لست وحدك فيها أيها العصفور*

الفكرة فى ذهنى من زمن طويل. وكنت أتريث بها حتى تبلغ أوانـها من النضج واكتمـال المـادة فأكتبها علـى مـا أرجـو ، ويقرؤهـا القـارئ على ما يحب.

أما العنوان فقد قبسته من عبارة لجون شتاينبك أرسلها علـى لسـان والد بطل روايته البديعة «إلى الشرق من عدن» وعدن هنا ليسـت مدينـة اليمن المشهورة ولا هى جنة عدن الواردة فى القرآن الكريم ، وإنمـا هـى قرية صغيرة فى الولايات المتحدة. وإلى شرقها وجد الشاب المغامر الذى تدور عليه الرواية عيون نفط تفجر منها الذهب الأسود عاليًا فـى السماء ثم انصب على الأرض مطرًا ، وتحت هذا المطـر الأسـود وقـف الشـاب المهتاج يمسح به وجهه وقد استطاره الفرح وجعل يقـول: الآن أنـا ملـك الدنيا! وهى لى جميعا. الأرض أرضى والذهـب ذهبـى والرجـال خدمـى والنساء عشيقاتى!

وينظر إليه أبوه الشيخ مشفقًا عليه من هذا الغرور المدمر ، ويقول:

– يالك من مسكين.. تحسـب أن هـذه الدنيـا لـك وحـدك.. لسـت وحدك فيها أيها العصفور.

أما الذى عجل بكتابتها ، فحادث عادى مما يحدث لى ولـك كثـيرًا فى هذه الأيام، ونحن نروى مثل هذا الحادث للطرافة وتفريج الهمـوم ، وهى فى الحقيقة تنطوى على تصوير لداء ربما كان من أخطر ما نعانيـه والقصة أننى أردت تنجيد كرسيين وبعض الوسـائد فقصـدت رجـلاً مـن أصحاب هذا الشأن بعد أن اشتريت قماش التنجيد ، وسألته عن أتعابـه فجعل ينظر ويقيس ويحسب. ثم قال:

---

* نشرت هذه المقالة فى ٢٦ سبتمبر ١٩٨٢م .

– عن الكرسيين وحدهما مائة وخمسون جنيها

وفاجأني هذا التقدير الذى تخطى كل حسباتي ، فقلت له :

– وهذا آخر ما عندك؟

– إى والله ، وهو تقدير راعيت فيه ما بيني وبينك من قديم المعاملة ، وهو لهذا أيسر ما أستطيع طلبه ، ولا أملك تخفيض شيء منه.

– ما كانت نيتي قط أن أسألك التخفيف ، لأن الفرق بين ما كان فى خاطرى وما قلت أنت شاسع ، فلندع الأمر كله الآن حتى يرزقني الله ما تطلب أو قريبًا منه ، وأخذت قماشي ومضيت..

ودلني الناس على رجل آخر حسن الصنعة وعلى جانب كبير من الإحساس الخلقى ، فقام لى بالعمل كله : الكراسي والوسائد على أحسن هيئة. وتقاضانى عن ذلك كله خمسة وستين جنيها.

وبعد شهور طرق المنجد الأول بابى ، وقال وهو مروع مستاء :

– زوجتى تضع اليوم أو غدًا ، وقد حملناها إلى مستشفى صديقك الدكتور فلان لقرب مستشفاه منا وواسع شهرته فى التوليد.. ولكنه يطلب قبل أن يدخلها المستشفى ثلاثمائة جنيه عن العملية وأيام ثلاثة.

أما فى ذلك؟ أدخلها لتلد فى أمان وتقوم بالسلامة.

– ولكن ثلاثمائة جنيه! تلك كما ترى مغالاة ، وقد أتيت أرجوك أن تكلمه فى التخفيف.

– أما أنا فلن أكلم صاحبى فى التخفيف ، وإذا كنت أنت تطلب مائة وخمسين جنيها فى كرسيين ، فلماذا تستكثر على الطبيب ثلاثمائة فى عمل فيه حياة.. وموت؟.. إننى أحسب أنه يغالى فى التقدير ، ولكنك أنت أيضًا تغالى ، وأنت تتصور أن المغالاة حق لك

وحدك ، وقصر عليك. وأنت تنسى أننا كلنا نعيش فى دنيا واحدة ، فكما تغالى على الناس يغالون عليك ، وما تأخذه منى زيادة دون عدل يأخذه منك آخر زيادة دون عدل. والعلة جاءت من أنك تتصور أنك هذه فى الدنيا ، وكلها لك وحدك أيها العصفور.

□□□

ومن معانى الحضارة أنها القدرة العقلية على العيش معا ، كما يقول جوردن تشايلد ، فى كتابه المسمى «ماذا حدث فى التاريخ؟» فإن المخلوقات الوحشية مفطورة على الإحساس بأنها تعيش وحدها ، أو أن الكون مخلوق لها وحدها ، ولو ترك كل جنس وشأنه لأهلك البقية ، ولا يمسك الحيوان عن التهام الكون إلا الخوف على حياته هو، ولو تركت الأغنام وحدها لأتت على كل أخضر تجده ، ولكن الذى يمسكها ويمنعها من التمادى هو الخوف على حياتها من السباع ، وقد أهدانى صديق مرة حملاً صغيرًا هو الوداعة نفسها ، فأطلقته فى حديقة صغيرة كانت عندى ليمرح ويزأط ، وخرجت وعدت آخر النهار فإذا بهذا الحمل الوديع قد قضى على ثلاثة أرباع الحديقة ، وأدهشنى أن يجتمع فى كيان هذا المخلوق الصغير الوداعة الجميلة والشراسة الرهيبة فى الافتراس. واللطيف أنه بعد أن ألحق بى هذا الضرر كله جعل ينظر إلى بعينيه البريئتين وفكاه لا تتوقفان عن القضم والمضغ ، فقلت له: لا. وحياتك ما تخدعنى قط نظرتك الوديعة تلك. ولو تركتك على علاتك لأكلتنى على طريقتك ، ولا علاج لك إلا الجزار والفرن. هنا ستكون أنت أجمل وألطف ونعيش نحن عليك يومًا كما افترستنا أنت فى يوم.

وقد كان الإنسان البدائى قبل الدخول فى دور الحركة الحضارية يعيش بفكر صاحبنا المنجد الذى أباح لنفسه أن يستحل مالى دون حق ، ثم استنكر أن يستبيح غيره ماله ، مال الناس له حلال ، أما ماله هو فحرام ، والضمير والدين والإنسانية ينبغى أن توجد عند الآخرين

ليعاملوه بها، أما هو فيعامل الناس دون ضمير أو دين أو إنسانية ، وقد كان المنجد الذى ذكرته يكلمنى فى وداعة ذكرتنى بالحمل الوديع الذى افترس الحديقة فى يوم ثم جاء ينظر إلى فى وداعة وبراءة ، وقد التمست عذرًا للحمل لأنه خروف. وهذا مستوى فهمه ، ووجدت كذلك علاجًا لوحشيته ، فأكلته بعد أن أكلنى. ولكن ما حيلتى مع هذا المنجد وأشباهه ممن يفترسوننا على مدار اليوم دون إحساس أو مراعاة؟ وقد حدثونى عن رجل انكسر محور سيارته وهو المعروف بعمود الكردان ، فأصلحه درمه وباع السيارة لرجل آخر وهو يعرف أنه غشه. فباعه سيارة مقصومة الظهر. وشاركه فى ذلك الغش صاحب متجر سيارات ، فأما الذى باع السيارة فله ابن غير صالح يسلبه ماله قسرًا ويهينه ويسود عيشته. وأما صاحب متجر السيارات فقد ذهب إلى أوروبا ليعربد ويتسوق فنهبوا ماله واشترى سيارة من إيطاليا وفى الطريق من الإسكندرية إلى القاهرة انكسر عمودها الفقرى ، وهو عمود الكردان. وكلاهما يشكو سوء حاله وما أصابه ، ويتعجب ويتساءل: ماذا فعلت يارب فى دنياى حتى يصيبنى هذا كله؟ والجواب على هذا التساؤل الغريب هو ما قاله جون شتاينبك على لسان الأب يخاطب ابنه:

– يالك من مسكين ، تحسب أن الدنيا كلها لك وحدك ، ولست وحدك فيها أيها العصفور.

وهنا نضع أيدينا على داء من الأدواء التى تجعل حياتنا اليوم جحيما ، وقد أشرت إلى ما وصفه أنيس منصور من تزاحم الناس وتدافعهم ، ودفع الناس بعضهم لبعض فى الطرقات دون إحساس أو مراعاة ، فالواحد منهم يدوس الآخر ولا يبالى ، لأنه يعيش بإحساس أن الدنيا له وحده ، وهو وحده له حق المسير فى الطريق ، والآخرون دخلاء وله الحق أن يدوسهم إذا اعترضوا طريقه. ومن أسابيع وقفنا عند معبر للطريق فى شارع الهرم ، وكنا جماعة تريد أن نعبر إلى الضفة

الأخرى ، والسيارات تنهب الأرض دون مراعـاة لأحـد ، ونحـن ننتظـر ونشير بأيدينا ولا أحد يطامن من سرعته ويأذن لنا فى المرور ، كأنه هـو وحده الإنسان ونحن لا ناس ، كأن الإنسان منهم إذا أخذ رخصة قيادة سيارة فهى عنده رخصة ليدوس الناس ، وبعد لأى وخوف شديد وقـف لنا راكب سيارة وأوقف الآخريـن. فعبرنـا ونحـن لا نصدق بالسـلامة ، وكأننا فى ميدان حرب. ونجونا من رصاص القناصة. وأنظر إلى صـاحب السيارة الذى تفضل علينا بذلك فـأجده الممثـل عمـر الحريـرى ، وأقـول لنفسى :

أخيرًا.. رجل متحضر!

أجل: متحضر. لأن الموضوع هنا موضوع حضارة ، لأن الحضـارة مـن معانيها الرئيسية القدرة على العيش معا فى سلام ، والعيش يختلف عن التعايش. فإن الحيوانات تتعايش على أساس الافتراس ، فهى لا تراعى بعضها بعضا ، وإنما يخيف بعضها بعضا ، ويتحامى بعضـها بعضـا ، فالسبع أو النمر والغزال تتعايش ، ولكن على أساس الهـرب والخـداع ، فالنمر لا يترك غزالا قط إلا إذا كان قد شبع وامتلأ أو قعد به المـرض أو أعجزه الغزال بسرعة عدوه والأرنب يعيـش فـى جحـر عميـق لا سـبيل للسباع إليه وهذا تعايش على أساس الغريزة الوحشية ولكنه ليس عيشًـا معًا. ويفرق جوردون تشايلد بين الاثنين.

فالتعايش الغريـزى يسـمى Co-existence معـا علـى أسـاس العقـل والفهم الحضارى يسمى Co-living . فالأول مجرد وجود أو نجـاة مـن الهلاك Survival : والبقاء مع الخوف الدائـم. وفـى وجـود كـهذا. لا أمن ولا فكر ولا تقدم. والثاني حياة فى ظـل العقـل والأمـن وهنـا يكـون الفكر والتقدم والحضارة ، هنــا يزدهـر الفكـر وتنمـو الفضـائل.. وينتقـل الإنسان من الوجود إلى الحياة.

وهذا هو الذى انتهيت إليه بعد تفكير طويل فى أحوالنا فليس الذى نحن فيه اليوم حياة بل مجرد وجود أو إفلات من الهلاك أو «سيرفايفل» ، فأنت تخرج من بيتك ولا تدرى إن كنت تعود ، فإذا كنت راكب سيارة فأنت لا تأمن سيارة أخرى يركبها مخلوق يحسب أنه مادام قد اقتعد مكانه وأمسك بعجلة القيادة فقد أصبح الشارع كله ملكه ، وليس على ظهرها إلا هو وسيارته قاتله الله! فهو يندفع ويلف ويدور ويهشم سيارات الآخرين ، لأن الشارع كله ملكه ، والمرور كله فى خدمته ، وإذا كنت سائرا على قدميك ففرصتك فى النجاة قليلة ؛ فالأرصفة استبد بها من دونك أصحاب سيارات أوقفوها عليها ، وبعضهم يسترسل فى البدائية والوحشية ويغطى سيارته على الرصيف بغطاء من قماش. لأن هذا الرصيف ملكه ، ونحن السائرين على أقدامنا لا شىء : هوام أو حشرات أو قطط وكلاب نستطيع أن نمر تحت سيارته ، فليس على ظهرها غيره. وبعد السيارات تجد بائعًا قد احتل الرصيف بصناديق فاكهة. ونحن إذا عذرنا هذا البائع لأنه جاهل يطلب رزقه بالطريقة التى تعود عليها.. فأى عذر نلتمسه لرجل المفروض أنه متعلم ويعرف شيئًا عن المواطنة والمواطنين؟ وما باله لا يكتفى بوضع سيارته على الرصيف بل يغطيها بقماش حماية لها ، ويرغمنا نحن على الهبوط إلى نهر الشارع والتعرض للخطر؟ إن سيارته عنده أغلى من حياة الناس ، وهذا مستوى فى الإحساس الإنسانى جد ضئيل ، وصاحبه لا يمكن أن يكون متحضرًا. إنه حيوان بدائى يتصور أن الدنيا كلها ملكه ولا وجود للآخرين.

ومثل هذا الرجل ألوف وألوف من أولئك الذين يعيشون معنا ويحسبون أنهم مواطنون صالحون ، وماهم بمواطنين بأى حال. وقد تعودنا القول بأن اللص هو من يأخذ مالا ليس له ويدعى أنه له وهو يعلم أنه كاذب. وجريمة السرقة هنا لا تتوقف على قدر المسروق أو

طريقة السرقة ، فسارق الجنيه لص وسارق الألف لص ، والذى يدس يده فى جيبك وينشل حافظة نقودك لص.

والرجل الذى يقتحم دارك لص، وكذلك الذى يتقاضاك عن سلعة أو خدمة أضعاف ما تستحق ، وقد يزعم بعض المشتغلين بالتجارة أنها تجارة وشطارة وأن التجارة تبيح للتاجر أن يكسب أقصى ما يستطيع. وهذا ليس مجرد خطأ فى فهم معنى التجارة. بل هو سرقة مقصودة. والمقدم عليها لص. وأى فرق والله بين النشال الوضيع والمحتال الرقيع وطبيب موفور الرزق يرفع أتعابه ضعفين وثلاثة. أو يطلب عن عملية جراحية أضعاف ما تسمح به آداب المهنة؟ والمحامى الذى يبذل أقصى وسعه في الحصول على توكيلك ومقدم الأتعاب. ثم لا ترى منه بعد ذلك إلا تأجيلات وتسويفات. وفى كل يوم يكون عنده أربع أو خمس قضايا فى محاكم شتى ، فيحضر واحدة ويكلف زملاءه بالاعتذار له وطلب التأجيل فى الباقيات ، ومدرس يتعمد إرغام التلاميذ بأساليب معروفة على أن يأخذوا عنده دروسًا خاصة وينتقل من بيت لبيت كأنه محصل لا معلم. ويطول الأمر لو مضينا نستعرض المنحرفين فى شتى المهن.

فهذه الممارسات كلها ممارسات عدوان على أموال الناس وعلى أمن الوطن كله ، وإذا كنت قد صورت لك جرائم أولئك الذين ينطلقون بسياراتهم فى الشوارع غير عابثين بإخوانهم المواطنين الذين يريدون عبور الشوارع ، وأريتك معى أنهم فى الحقيقة سفاحون على عجلات القيادة. فقد آن أن أقول لك هنا إن المسألة ليست مسألة استخفاف أو نزق فحسب ، ولا هى أعمال سطو غير مشروع على أموال الناس وحياتهم فقط. بل هى دليل على أن المستوى الحضارى العام منخفض جدًا ، لأننا فى الحقيقة نعيش بأسلوب البدائيين الهمج الذين لا يعيشون ولكنهم يتعايشون. والحياة عندهم هرب من الاغتيال ونجاة من الهلاك أو «سيرفايفال».. وصدقنى.. إنك عندما تعود إلى بيتك

سليمًا بعد انتهاء عملك فتلك مصادفة لأن أى ضعلوك جالس على عجلة قيادة كان من الممكن أن يصدمك ويصيبك بأذى لا حدود له. لولا عناية الله ، وإذا صحوت من نومك بحمد الله معافى أنت وأهلك فتلك أيضًا مصادفة ، لأن شيئًا ما لو طرقك أو أيا من آلك بالليل ، لا قدر الله ، واحتجت إلى الطبيب المسعف فسيطول شقاؤك ، لأن التليفون لن يسعفك ، ورقم الإسعاف لا يرد ، ولو رد فإنه لن يدركك إلا وقد فات الوقت ، وإذا أتى رجال الإسعاف وحملوا المريض فهو لا يدرى في أى أيد سيقع ، والمفروض أنك تحت مظلة التأمينات. ولكن تلك المظلة سلوك ولا قماش ، وها أنا ذا أكتب لك هذه السطور وأنا مثلك تحت المظلة ، ولكن صدقنى أنه لو وقع لى شىء الآن فلا أنا ولا أهلى تعرف إلى أين نتجه ، والمفروض أن كلا منا ينبغى أن تكون معه بطاقة تأمين صحى على مستشفى أو مركز إسعاف معين قريب من بيته. وفى البطاقة أرقام تليفونات المفروض أنها ترد وتستجيب وتسعف فى المحال. وقد قيل لى إن هذه البطاقات موجودة ، ولكن الذين اعتمدوا عليها ندموا على ذلك أشد الندم.

والمصيبة أن هذه البطاقات موجودة ولا تنفع ، وليس أمامنا جميعا إلا الحل القديم الذى كان موجودًا قبل المظلة وبعدها. وهو أن تتصل بطبيب صديق إذا كان لك طبيب صديق ، أو يسرع المصاب أو يسرع به آله إلى قسم الطوارئ فى أحد المستشفيات ، وهذه الطريقة موجودة قبل المظلة. وكانت فى الماضى تنفع ولكننى جربتها مع ناس أحبهم ثلاث مرات ، وفى مرتين ضاع منا المريض ، وفى الثالثة أنقذناه فى آخر لحظة «صدفة» والصدفة كانت طبيبًا طيبًا متحضرًا مجربًا وجدناه هناك «صدفة» فرأف بحالنا فأسعف المريض.

إذن فكيف تكون هناك مستشفيات ومراكز إسعاف وأرقام مدونة على بطاقات ولا نتيجة؟ كيف يكون هناك ناس معينون لإسعاف المرضى فى مئات المستشفيات ولا فائدة والمريض أو المصاب الذى يصل يقضى

الساعة أو أكثر قبل أن يظفر بأى عناية؟ هل هذا خطأ الدولة أو المسئولين عن شئون الصحة؟ لا والله فالحكومة تنشئ المستشفيات وتعين الأطباء والمرضين وتدفع الرواتب ، ولكن المصيبة فى الناس الذين لا يحسون بإحساس الآخرين قط ، والمريض أو المصاب فى نظرهم رزية أو جثة. رجل غريب ينظرون إليه كما كان البدائى ينظر إلى أى رجل غريب عن قبيلته إنه ليس إنسانًا فى نظره بل هو عدو ينبغى التخلص منه ، إنهم يحسون أن الدنيا كلها خلقت لهم وحدهم ، والآخرون ليس لهم وجود.

ومنذ عامين كنت فى طليطلة بأسبانيا فى مؤتمر ، وأصيبت ساقى إصابة أليمة ، ونادينا تاكسيا فأخذنا إلى أقرب مستشفى ، وما كدنا نصل حتى لاحظ المرضون أننى لا أستطيع السير ، فأسرعوا بكرسى ذى عجلات ونقلونى عليه ، وخلال ساعة كان الكشف قد تم ، وعملت صور الأشعة ، وكتب العلاج ، كل هذا ولا بطاقة مظلة معى ولا رقم تليفون وإنما هم الناس الذين هناك هم الذين يشعرون أن المريض إنسان مثلهم ، له حق العناية ، وأنهم يتقاضون رواتب ليكونوا هناك دائما. أما أن تصرف الرواتب وأصحابها إما أنهم غير موجودين فى مواقعهم وإما أنهم موجودون ولكنهم ينظرون إلى أى مريض يؤتى إليهم به وكأنه رزية أو بلية أو تلقيحة ، فلابد أن يكون هناك شىء ناقص. إذا وجد المرض لم يوجد الطبيب ، وإذا وجد المرض والطبيب فجهاز الأوكسوجين لا غاز فيه والأشعة معطلة وفى كل الحالات فالدواء غير موجود وعلى المريض أو آله أن يسرعوا إلى الصيدليات المناوبة.. وأين هى؟ فى أوروبا تجد على باب كل صيدلية مقفلة قائمة بالصيدليات المناوبة المفتوحة فى ليلتك. كشف داخل برواز مضىء وعلامة على أقرب صيدلية ، وأسأل صديقًا صيدليًا فى ذلك فيقول: جربنا ذلك فكان اللصوص يسرقون المصابيح ، والمصباح الصغير هذا ثمنه قروش قليلة ، وأنا شخصيًا لم

أسمع بهذه التجربة «ونقابة» الصيادلة لم تضع أى تعليمات دقيقة لتنظيم شئون الصيدليات المناوبة، والإعلام الضرورى بهذا الشأن منعدم ، وبعد نشرة الأخبار فى أى بلد متحضر يقرءون عليك فى التليفزيون قائمة بالصيدليات المناوبة فى كل حى ، وخاصة فى المدن الكبرى ، والناس يصغون إلى هذا البيان وفى يدهم المفكرة والقلم ، ليدون كل منهم الصيدليات المناوبة فى حيه، ويكفى فى هذه الحالة أن يعطوك صيدليتين فى كل حى ، لأن الصيدلية تدلك على الطبيب إذا احتجت إلى الطبيب ، أما عندنا فانك تسمع بعد النشرة أغنية تقول لك: إنك تنتسب إلى سبعة آلاف سنة من الحضارة ، وتتلفت حولك وتبحث فى جيوبك وتنظر من النافذة وتسأل أين؟ أين هى تلك الآلاف السبعة؟ كان يكفى والله سنة واحدة! كان يكفى أن نكون فى سنة أولى حضارة على أن تكون سنة أولى وحضارة حقًا.

لابد أنك رأيت بعض أفلام رعاة البقر.

ولابد أنك رأيت مرة فى هذه الأفلام قطيعًا من البقر أو البقر الوحشى المسمى بالبيزون ، وقد ذعر وانطلقت ألوفه فى حالة ذعر أو فزع أو «يانيك» حيوانى يسمى «بالاستامبيد» هنا ترى ألوف البقر تنطلق مروعة يدوس بعضها بعضا، وتدوس كل ما يعترض طريقها. فهذا هو ما تراه حولك: استامبيد! والناس يخطفون من حولك ، ويدوسونك إذا اعترضت طريقهم أو لم تنتبه لنفسك ، وانظر إلى الشارع المصرى وقل لى إن لم تكن بالفعل فى حالة اليانيك هذه. فالسيارات تدوسك قطعًا إذا لم تكن فى يقظة الفأر ، وإننا لنرى من فظائع ما يحدث مالا يكاد يصدق ، وفى الإسكندرية على الكورنيش تبينت أن عبور الشارع مخاطرة بالنفس ، وكادت السيارات تصيبنى بشر عظيم ذات مرة ، فأقصرت عن العبور. وحرمت على نفسى متعة المشى على شاطئ البحر ، ولأجلها أتيت! ولمدة عشرة أيام لم أجازف بعبور الشارع مرة

واحدة ، وبين رجل مرور ورجل مرور مسافة ميلين أو أكثر ، وأصحاب السيارات كأنهم أعلنوا الحرب على المشاة. لا هوادة ولا رحمة كأنهم غزاة دخلوا بلدا وألغوا قوانينه وأعلنوا حالة طوارئ وهم أعلنوها فعلاً ، وأى سائر فى الطريق يعتبر نفسه فى حالة طوارئ.

وما يحدث لك فى الطريق يحدث لك فى غير الطريق فى صور شتى، وأنت دائمًا فى حالة «پانيك» ودفاع عن النفس ونجاتك مصادفة! وهل هناك أبسط من عملية شراء شىء من الفاكهة؟ ولكنك لا تكاد تقترب من الفاكهى حتى يشرع فى عملية اغتيال مالك ، فالسعر الذى يقوله لك مضاعف ، وأنت وحظك ، فإذا كسبت منه معركة السعر اغتالك فى النوع: قطعتان على الوجه والباقى ستلقيه فى الزبالة، فإذا كسبت معركة النوع اغتالك فى الوزن! فمالك ضائع ضائع، وهذا الذى يبيعك الشىء عدو يتحفز ليغتال مالك. وأى عامل تطلب إليه خدمة فهو يفرض عليك أجرا وكأنه يشهر فى وجهك مسدسًا ويقول لك كما يقولون فى الألمانية: مالك أو دمك. وقد تعودت أن أكشف على نظرى عند طبيب أعرفه كشفًا روتينيًا مرتين فى العام ، لكى أقيس المسافة بينى وبين الظلام ، وكنت أدفع فى هذا الكشف جنيهات عشرة إلى العام الماضى ، وهذا العام أعطيت شيخ الخفر ، ولا أقول الممرض فهو فى الحقيقة شيخ خفر ، الجنيهات العشرة.. فقال: عشرة أخرى ، أصبح الكشف عشرين ، ففكرت قليلاً ثم أخذت منه الورقة المالية وقلت: لا لزوم مادمت أفرق بين الورقة ذات العشرة والورقة ذات العشرين ، فحالة النظر هى هى والحمد لله ، وصاحبى الطبيب لن يقول لى إلا هذا على أى حال وهبطت السلم وأنا أغبط نفسى على أننى كسبت عشرين جنيها!

ومن المسئول عن ذلك؟

الحكومة؟

وهل الحكومة إلا نحن؟ ومن يكون الجالسون فى مكاتب الدولة إلا نحن أو أبناء عمومتنا؟.. فالعيب فيهم كما هو فينا. ومن شهور شب حريق فى بيت جار صديق بعد منتصف الليل ، وبعد محاولات لاستدعاء المطافئ بالتليفون ، رد رجل يقول: المطافئ لا تستدعى إلا من مراكز البوليس! ويسرع ابن الرجل بملابس البيت ميلين إلى نقطة البوليس ، فيجد الضابط يتحدث ويتضاحك بالتليفون ، ثم استأذن من صديقه ، وقال للشباب:

– فيه حاجة يا حضرة؟

– أجل ، فى بيتنا حريق . وأرجو استدعاء المطافئ.

– البطاقة؟

– سيدى لقد أتيت إلى هنا عدوًا والنار فى بيتى.. أرجوك وأنا فلان..

– البطاقة أولاً

وأسرع الشاب عائدًا إلى بيته ، بينما رفع الضابط سماعة التليفون وعاد إلى الضحك وهو يقول:

– بقى هيه الحكاية كده يا حمادة؟

وعندما عاد الشاب ، وجد أن النار قد التهمت نصف البيت ، وذكر الأب أن لديه رقم ابنة أحد كبار المسئولين فهى صديقة ابنته ، فاستغاث بها فجاءه الفرج.

والرجل موجود يستطيع أن يؤكد الواقعة.

ولكننا أمام حالة فريدة لناس يعيشون كأنهم عصافير أو غربان ، كل منهم يحس كأنه وحده على ظهر هذه الأرض ، أو كأن الله خلقها له وحده ، والناس من حوله غرماؤه فهو يغتالهم على قدر ما يستطيع ،

وهم أيضًا يعاملونه بالمثل ، ولو استطاع الواحد منهم أن يمحق الآخرين ليعيش وحده لفعل.

مبالغة؟ لا والله! إنه الواقع ولا زيادة ، وبالأمس سمعنا ثلاثة أو أربعة من المسئولين عن مياه الشرب يقولون: إن الطحالب في الماء دليل على جودته وصلاحيته للشرب ، وأنا واثق أنني لو قدمت لكل واحد من هؤلاء السادة كوب ماء بالطحالب وقلت له: أشرب ماء صحيا بالطحالب.

أتظن أنه يشربها؟ لا والله! إنه يرضاها لنا ، ولا لنفسه ، فنحن شيء وهو شيء. نحن لا ناس وهو ناس ، وقد خلق الله الدنيا كلها بما عليها ومن عليها لهذا العصفور ، فليس على ظهرها غيره.

وهل هذا المستوى الحضارى المتدنى جديد علينا؟ أقصد هل كنا بالأمس أحسن مما نحن عليه اليوم؟

فى الظاهر فقط ، أما فى الباطن والحقيقة فقد كنا دائمًا هكذا.

أما ما يبدو من أنه كان هناك – من ثلاثين سنة مثلاً – نظام أحسن وخلق أسمى وأخلاقيات أعلى ، فالسبب فى ذلك أننا كنا أقل عددًا ، وكانت المرافق جديدة ، فلم يكن التزاحم بهذا العنف ولم تكن المرافق قد بليت ولا كانت مكاتب الحكومة قد اتسخت وهبط حالها إلى المستوى المخيف الذى هى عليه اليوم.

وكانت قد عبرت بنا موجة – قصيرة الأمد مع الأسف – من الحضارة الأوروبية فتأثرنا بها حينا ثم عدنا إلى ما كنا عليه.

عدنا إلى حضارة المجتمع العربي من القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى وما بعده ، وهى حضارة تدهور وأضطراب وظلم.

وفى ظل هذه الحضارة لا يكون للإنسان هم إلا النجاة بنفسه وعياله، وفى ظل تلك الحضارة المتردية سادت الأنانية ، وكل إنسان كان يتصرف على أنه عصفور - أو غراب - وحيد فى تلك الدنيا ، وكل ما فيها له وحده ولا وجود للآخرين..

أما حضارة التعاون ، حضارة العيش معًا ، فلم نسعد بها إلا فترة قصيرة جدًا.. وتلك حكاية أخرى تحتاج منا إلى حديث يعيننا الله عليه إن شاء الله. □

(٨)

أنفقت مالى وحَجَّ الجمل*

عادت قوافل الحجاج إلى قواعدها سالمة والحجاج عادوا من رحلة التقى، والصلاح أبرارًا كما ولدتهم أمهاتهم. لكى يبدءوا عامًا جديدًا من أعمارهم المجيدة يخوضون خلاله فى متاهات الحياة إلى الرقاب. ويكونون فى نهايته سودًا كالهباب كما تريدهم شياطينهم.

وعلى ألوف البيوت فى طول البلاد وعرضها أقيمت الزينات على بيوت الحجاج السعداء، وتألقت حبال من المصابيح المختلفة الألوان تعلن أن هنا واحدًا من السعداء الذين حجوا وزاروا ولبوا وسعوا ووقفوا بعرفات وأفاضوا من منى وغفر الله سبحانه لهم كل ذنب تقدم وقلدتهم الملائكة الأطهار أوسمة من نور.

وأمام العمارة الصاعدة إلى عنان السماء التى شادها الحاج حسنين عبد الدايم عنبة – عنبة واحدة – على أرض استولى عليها بوضع اليد وبناها دورًا دورًا بحجارة من جهنم. جلس الحاج الذى زار سبع مرات واعتمر سبع مرات وأسبل عينيه يستمع إلى آيات الذكر الحكيم فى سرادق عظيم أقامه بماله كله منهوب وأضاءه بألف مصباح وأخذ التيار لها من جامع سيدى المحبوب، لأن الحاج عنبة لا تقف جرأته عند مال النبى. بل هو أيضًا يأكل مال الله، ولا ضير عليه فى ذلك فإنه يقول: أن الله سبحانه يغفر كل الذنوب.

وترك الحاج التقى الصالح آيات الذكر الحكيم تتضوع كالمسك فى جو السرادق، وجلس على أريكة عالية حليق اللحية مصبوغ الشعر كأنه عريس وسبح مع أحلام مئات الألوف التى سيجمعها هذا العام. فقد

* نشرت هذه المقالة فى ٢٤ أكتوبر ١٩٨٢م.

عقد بعد أن أفاض من منى وحل الإحرام عقدا مع حاج من أمثاله من أبناء الملايو يسمى عبد الستار فونج تونج ومركز أعماله فى هونج كونج، باستيراد بضع مئات الأطنان من أحقر أصناف الشاى، وتسلم من الحاج فونج تونج بعد أن دفع العربون صندوقًا مليئًا ببطاقات مستديرة مطبوعة بالذهب آنق طبع وأجمله تقول:

إن هذا الشاى هو القطفة الأولى من الأيرل حراى أغلى شاى فى الدنيا، وقد رصها الحاج فى الصندوق رصًا وغطاها بسجاجيد صلاة ومسابح ولفائف من المسك والعود، فرقها على رجال الجمارك وهو عائد إلى الوطن العزيز، ومر من الجمرك دون تفتيش، وتراب الشاى يعبأ الآن فى دهاليز دكانه فى أكياس من البلاستيك وتثبت فى كل كيس منها بطاقة مذهبة لتباع بعد ذلك على عباد الله التعساء فى صناديق جميلة تقول بلغة إنجليزية سليمة إنها واردة من سيلان من صنع س. م. بلاك وت. ر. هوايت الموردين الخاصين لبلاط جلالة الملكة التى غربت شمسها فى كل مكان.

وأشرقت في سرادق مقصوف الرقبة. الحاج حسنين عبد الدايم عنبة. ومحلاته من مشهد الإمام الحسين إلى العتبة. وعين الحسود فيها ألف حصوة وحبة.

وفى شارع قريب من الشارع الذى يقيم فيه الحاج عنبة أنواره تلألأت أنوار أخرى أوقدها زميله فى التقى والورع الحاج محمدين عوضين المجذوب فقد عاد هو الآخر من الأراضى الحجازية بعد أن أكرمه الله بالحج والزيارة سبع مرات وبالعمرة سبع عشرة مرة.

جلس هو الآخر فى صوان أقامه عند عماراته التى شادها بالمال الحرام فى شارع الحجاز. جلس غارقًا فى أنوار الكهرباء وترقرقت آى الذكر الحكيم فى الآذان جميعا إلا أذنه فقد كان مشغول بقضاياه التى

لا تنتهى لأن كل ساكن من سكان عماراته تلك قد رفع عليه قضية، ولو أحسنت الحكومة لخصصت له دائرة قضائية تشمل كل درجات المحاكم من الجزئى والابتدائى إلى النقض والإبرام لأن مال صاحبنا كله حرام فى حرام، والشقة التى قيل ساعة الاتفاق إنها مائتا متر أصبحت مائة وخمسة عند الاستلام ومن يرفض الاستلام فهذه فلوسه يستطيع أن يستردها على داير مليم ولا ضير على الحاج فى ذلك. فقد بنى عمارته بمال الناس. وهناك مئات مستعدون لدفع ما يطلب والحاج الذكى لم يكتب إيصالاً أو ورقة بمقدم أو عربون وكله كلام فى كلام.

وهذا العام يدخل أخونا الحاج المجذوب ميدان الموبيليا والأثاث وقد اتفق مع الحاج تركى يسمى الحاج ترمان بدر الدين جاويد يحج سنة ويغزو أخرى كما كان يفعل هارون الرشيد، اتفق معه على إنشاء شركة اثاث حديث تسمى شركة مجذوب - كو. كل ما فيها مصنوع من خشب الجوز إذا شئت أو البوا - دى - روز، من تصميمات المصمم الإيطالى اليصاند - ينو نصابينى وستشتريها العرائس لأنها جميلة براقة.

وستتبين كل عروس بعد التبات والنبات، أن ما بها ليس بخشب الجوز ولا بخشب على الإطلاق. وسترفع القضايا وتدور ألف خناقة، ولكن ذلك كله لا يهم الحاج المجذوب. وفيما تضيره مائتا قضية جديدة إذا كانت لديه ألف! والمهم أن الأموال تنصب فى جيب صاحبنا بغير حساب، ويبتنى عمارات جديدة، وعلى باب كل عمارة حاجب وبواب. وفى آخر العام سيحج صاحبنا ويغسل آثامه جميعا ويعود إلى أرض الكنانة طاهرًا كما ولدته أمه.

والحج فيما قالوا له زيارة وتجارة.

والتجارة عنده ضحك على الناس وشطارة.

وغاب عن باله يا ألف خسارة.

أن هناك نارا وقودها الناس والحجارة.

وأرجو ألا يقع فى ذهنك وأنت ترى زيوف الحجاج هؤلاء، أن معظم الحجاج من هذا الطراز، فإن الغالبية العظمى من ضيوف الرحمن مسلمون مخلصون يخرجون للحج فى يسرة أو عسرة وقلوبهم معلقة بالكعبة وربها، وأمنيتهم العظمى فى الحياة هى أن يصل الواحد منهم إلى بيت لله ويحج ويقيم ما شاء الله له أن يقيم ثم يعود. والألوف منهم يخرجون من ديارهم لا يملكون إلا قوت شهر أو شهرين والكثيرون منهم يخرجون من بلادهم فى السنغال أو موريتانيا والنيجر ونيجيريا عند سوكوتو أو كانوا أو من بلاد الجوكون، فيما يعرف اليوم بالجابون، ويسيرون جماعات ترتزق على الطريق ومنهم من يحمل على ظهره زكيبة من التمر الجاف أو الشعير وما تيسر له من الجلود وهو يبيع ويشترى على الطريق، والرحلة طويلة شاقة ولكن الأمل فى زيارة بيت الله يشد عزمهم ويقوى قلوبهم، وغالبيتهم يختارون طريق السودان النيلي، لأنهم يجدون هناك ناسًا طيبين فى حاجة إليهم. لأن الأرض واسعة، والناس فى بعض نواحى السودان لا صبر لهم على الزراعة فيكترون من تيسر لهم من أولئك الناس يعملون لهم فى الأرض فى مقابل نسبة من المحصول ويعمل الرجل منهم في الأرض سنتين أو ثلاثا حتي يدخر ما يمكن له من مواصلة الرحلة وأولئك هم (الفلاتة) الذين يقومون أيضًا بنشر الإسلام على طول الطريق وهم ناس فى غاية الأمانة والشرف. ينزلون حيث يشاء الله لهم أن ينزلوا فيخدمون ويعطون أضعاف ما يأخذون، والفلاحون يأتمنونهم على أموالهم ونسائهم لأنهم أهل أمانة وفضل، فإذا اجتمع للواحد منهم من فضل عمله ما يمكنه من مواصلة الرحلة مضى، وقبل أن تستولى الحبشة على بلاد أريتريا كان حجاج أفريقيا يعبرون إلى الحجاز من موانى زيلع ومصوع وما جاورهما ويصلون إلى بلاد اليمن أو عسير، وهناك يعودون إلى الزرع والحصاد،

وشمال اليمن وعسير فى نواحى غامد وأبها وما جاورها من أخصب بلاد الله، فكان أولئك الناس يكسبون هناك مالاً طيبًا حلال، ثم يصعدون إلى أرض الحجاز فيحجون ويعتمرون، وكان مياسير الحجاج ينفقون الألوف على أولئك الناس، سواء فى الإقامة أو العودة ولم تكن أرض الحجاز فيما مضى أرض معاش واسع كما هى اليوم فكان معظم الحجاج الأفارقة يعودون كما أتوا فإذا عاد الواحد منهم إلى وطنه حاملاً لقب الحاج لم يعد يعنيه بعد ذلك من الحياة إلا أن يربى أولاده ثم يموت فقيرا قرير العين، فقد أكرمه الله بأغلى ما فى الدنيا فى إحساسه، وهو زيارة بلده الحرام والطواف حول الكعبة وإقامة شعائر الحج المبرور والوقوف بشباك المصطفى (كامل البهاء والنور) ومثل هذه الرحلة الشاقة كان يتجشمها الألوف بعد الألوف من أهل الملايو وجاوة وسومطرة وبلاد البنغال وبقية الهند وأفغانستان وما إلى شمالها من البلاد الواقعة اليوم فى أسر الروس والشيوعية. والله سبحانه يكتب لهم الخروج من سجن الكافرين والعودة إلى عالم الإيمان، ومعظم هؤلاء كانوا يحجون بطريق البحر، إما على نفقة أهل الخير والصلاح وما أكثرهم، وإما عاملين فى السفن وقادين وخدما وحمالين.

وقد قرأت من سنوات كتابًا هو قطعة من الإيمان، عنوانه طريق مجرة إلى السماء.. كتبه شاب طبيب يعمل فى ولاية أيوا الأمريكية، واسمه سيف الدين شوهان، مال وحكايته كما يحكيها كما يحكيها فى كتابه أعجب من الخيال، فإن والده واسمه علاء الدين شوهان كان من حجاج الملايو من إمارة البتك. ففى سنة ١٩٣٣م قرر الوالد أن يحج بامرأته، إذ أتيحت له فرصة السفر إلى جدة خادمًا على إحدى السفن الإنجليزية وتيسرت لامرأته فرصة العمل على نفس السفينة. ووصل الاثنان إلى الأرض المباركة فحجا وجاورا. ثم انقطعت بهما السبيل، فقد كان الموسم ممحلاً والحجاج الموسرون قليلين، وبعد الحج أقام الرجل وامرأته فى

الحوارى المحيطة بالحرم يبيعان ما يتيسر لهما من خبز وبيض ومتاع رخيص، أو يتسولان، ونزلت بالبلاد نازلة وباء احتملت الوالد علاء الدين شوهان. فمضى مخلفا امرأته حاملاً وجاء الموسم، ووفد الحجاج، وأنجبت الأم ابنها سيف الدين في موسم خصب وخير وبركة.

ويشاء ربك أن يحج فى ذلك العام (١٩٣٥م) حاج من مياسير أهل البتك، يسمى تاج الدين - رضا - مال، على سفينة تجارية يملكها، وأوسع الله عليه فكسب فى سفرته تلك مالاً كثيرًا، وكان ذات مرة يتسوق حول الحرك فراعته كثرة المتقطعين من أهل بلاده، فآلى على نفسه أن يعيد منهم من يريد إلى وطنه.

وكانت أم سيف الدين منهم، فعملت خادمة سفينة العودة ووصلت إلى بلادها مع وحيدها، وهناك عملت فى أرض الحاج تاج الدين، وكان ذلك الرجل الطيب قد افتتح فى أرضه مدارس إسلامية للصغار فدرس فيها سيف الدين ثم ظهرت منه نجابة، فأتفق الرجل عليه من ماله مع مئات من أمثاله ووصل الشاب إلى مدرسة الطب فى كوالا لامبور، وكانت إذ ذاك عاصمة مستعمرة بريطانية وتخرج فى المدرسة وعمل فى مستشفاها، وهناك لقيه طبيب أمريكي من ولاية أيوا كان يدرس هناك طب المناطق الحارة فأعجب به وتوسط له فى بعثة إلى جامعة الولاية فى ضواحى بلدة ديموين فلما وصل إلى هناك وعرفه الناس أحبوه وعينوه معيدًا فى كلية الطبب وكان اسمه قد أصبح سيف الدين شوهان مال و(مال) كان لقب التاجر الموسر الذى أعاده مع أمه من الحجاز إلى الملايو، وكان الرجل قد أعطى اسمه لكل من شاء من الأولاد والبنات الذين عادوا إلى البلاد على نفقته.

وقد أصبح سيف الدين مال من كبار أساتذة الطب فى جامعة الولاية، فكثر ماله وتزوج من أمريكية أسلمت لأول يوم تعرفت به، وأخذت اسم مريم وهو اسم أمه وجعلت تلح عليه فى العودة إلى بلاده مع أولادهما، فما كادت الحرب العالمية الثانية تنتهى، ويسرح الرجل

من الخدمة العسكرية، حتى عاد بماله إلى ولاية البتك، وهناك عاش وعمل وكتب حكايته فى كتابه هذا الذى أشرت إليه.

وإذا كانت الصلاة قرة عين كل مسلم. فإن الحج أمله ومناط حبه، وعلى مدار التاريخ ظلت مواكب الحج من أطراف المعمورة تفد على الأرض المباركة. ويتجشم أصحابها من عناء الرحلة وشظف الحج والقيام بمناسكه ما تجده مفصلا فى كتب الرحلات، ولكن يشاء ربك أن الحاج مهما عانى من الوصب فى رحلته فلا تكاد عينه تقع على الكعبة حتى يشرق قلبه بالنور، وينسى مضانك الرحلة ومتاعبها. ويفيض قلبه بحب الله ورسوله، ويلهج لسانه بالحمد شاكرا ثم ملبيا.

ويصور لنا ذلك الإحساس الدينى الدافق. الرحالة المشهور محمد بن أحمد بن جبير الكنانى الغرناطى صاحب كتاب الرحلة الجبيرية الذى يعتبر أجمل كتب أوصاف الرحلات فى أدبنا الجغرافى. لقد قام هذا الرجل بثلاث رحلات للحج من موطنه غرناطة إلى الأراضى المقدسة. وقد ولد فى غرناطة سنة ٥٤٠هـ ١١٤٥م. وتوفى فى الاسكندرية عائدًا من رحلته الثالثة سنة ٦١٦هـ أو ٦١٧هـ ١٢١٩م، أو ١٢٢٠م وهو معاصر لصلاح الدين. وقد قام برحلته الأولى للحج عندما كانت القدس فى أيدى الصليبيين. ووصف رحلته وصفًا بديعًا. فلما بلغه أن صلاح الدين قد استعاد القدس أسرع يحج مرة أخرى، ثم رحل للحج رحلته الثالثة بعد موت زوجته، وتلك هى رحلته الأخيرة التى مات وهو عائد منها.

وابن جبير دقيق جدًا فى وصف رحلته. فهو لا يترك شاردة أو واردة إلا دونها، ولا ينسى ذكر التواريخ قط ولكنه لا يكاد يصل إلى الحجاز بعد مكابدة أهوال شتى فى رحلته الأولى حتى ينسى نفسه ووقته وتواريخه . وتهتاجه العاطفة فيصبح كلامه كله شعرا. وهو لا يرى مكة والمدينة بعينيه بل بعين العاطفة والخيال والإيمان. عندما يقترب من

مكة لا يعود يرى أرضًا أو جبالاً أو وديانًا. إنما هي أنوار تهل عليه، وجنان تحيط به، وعطور تملأ الجو حوله، وما يحس به قلبه يطغى على ما تراه عيناه. وقد قلت في كلامي عن رحلته تلك في كتابي (تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس).

ولا غرابة في ذلك فإن الرجل الذي يحمله الإيمان على ركوب المخاطر، والتعرض للمهالك من ساحل الأطلسي أو من حدود الصين إلى الحجاز ينتقل بشعوره إذا هو اقترب من مهد الإسلام وبلد البيت العتيق أو إذا هو أهل على مدينة سيد المرسلين وعترة بني آدم. من عالم الواقع إلى عالم الإشراق الروحي، وتستغرق إحساسه نشوة غامرة نحمد أننا كنا ممن عرفها واستشعر جمالها.

الحق أن رحلة ابن جبير قطعة من الأدب الجغرافي إلا عندما يصل إلى مكة المشرفة. هناك يصبح الرجل شاعرًا ثم صوفيًا فهو لا يتحدث إلا عن الأنوار والبركات والخيرات وهو لا يصف لنا - على عادته - مأكله ومشربه. كأنما استغنى عن زاد الدنيا بزاد المعاد. وهو ينتقل من مشعر إلى مشعر من مشاعر الحج. وكأنه دانتي يتجول في نواحي الفردوس في صحبة بياتريس. وهو عاشق ولهان - مثل دانتي - وهو معذور في عشقه. فإن الله سبحانه وتعالى قد أفرغ على بيته وما حوله من الجمال ما يجعل أبعد الناس عن الشعر شاعرًا، لقد حججت أول مرة سنة ١٩٣٨م. ولم تكن المملكة السعودية قد أنشأت هناك ذلك الإنشاء الباهر الذي نراه اليوم. وإنما كان الحرم المكي أصغر مما هو عليه اليوم بكثير، ولكن صدقني إنني لا أشعر كيف كان ويقع في حسباني أنه كان دائمًا بهذه السعة والجمال، ولقد كان الحرم حول الكعبة حصباء إلا المسعى ومع ذلك فإنني لا أذكر إلا أنه كان جميلاً باهر الجمال مفروشًا بالرخام أبدًا وأيامها كنا نقيم عند مطوف طيب القلب رحيم بإخوانه أسكننا دويرة لطفية هي رحبة تحيط بها حجرات، وتلك الحجرات كانت بيته

مع أهله، فإذا جاء موسم الحج أخلاها ليؤجرها للحجاج ولا أذكر كم كنا نؤدى إليه، ولكننى أذكر أننى كنت دائمًا أشعر لأنه ينفق علينا أكثر مما تعطيه، وكان يسمى الحاج خلفان الغامدى، وكانوا ينادونه بأبى فاطمة، ولم يكن عنده من الطعام إلا ثريد أو قول مطبوخ بشعير، وكان رفقائى فى الدار أهل نهم. فما تكاد القصعة توضع حتى يمسحوها مسحًا فلا أكاد أصيب شيئًا وأمضى إلى ساحة الحرم حيث أجلس وأسند ظهرى إلى حائط ويأتينى الحاج خلفان وفى يده ابنته فاطمة ومعه خبز وفول ويقول: كل يا بنى، فما أراك إلا جوعان، وأنت فيما أرى خلفان مثلى فى شئون المعاش. وآخذ الطعام، ومعى الصغيرة وأخرج من الحرم وأضع الطبق على عتبة بيت وآكل وبصرى مثبت فى البيت.

وقد تحدث ابن بطوطة أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إبراهيم اللواتى الطنجى عن مكة والمدينة حديثًا مستفيضًا فى رحلته والحج إلى بيت الله الحرام كان محور حياة هذا الرجل الذى يعد من معالم الحضارة الإسلامية ورحلاته كلها كانت طوافًا دائمًا حول البيت من قريب أو بعيد، وهو يدور ويدور ثم يعود إلى مكة والكعبة ولقد حج ست مرات وجاور أثناء رحلاته فترات إذا جمعتها كانت نحو ثلاث سنوات وله فى كلامه الكثير ملاحظة لو قرأتها وتأملت أحوال مكة اليوم لنالك العجب فقال (إن الله سبحانه وتعالى شاء أن تكون مكة بواد غير ذى زرع ولكنه ساق إليها الخيرات من كل صوب فكل طرفة تجلب إليها وثمرات كل شيء تجلب إليها. ولقد أكلت بها من الفواكه العنب والتين والخوخ الطيب والرطب مالا نظير له فى الدنيا. وكذلك البطيخ المجلوب إليها لا يماثله سواه طيبًا وحلاوة واللحوم بها سمان لذيذات الطعوم. وكل ما يفترق فى البلاد من السلع فيها اجتماعه وتجلب لها الفواكه والخضر من الطائف ووادى نخلة وبطن قر لطفا من الله بسكات حرمه الأمين ومجاورى بيته العتيق).

وابن بطوطة كان فى مكة فى حجته الأولى فيها بين رجب وذى الحجة سنة ٧٣٨ هـ نوفمبر ١٣٢٨م أى أن بيننا وبين كلامه هذا نحو ستة قرون ونصف، ومع ذلك فأنت تشعر وكأن مكة فى أيامه هى مكة اليوم وكأن الرجل كان يجد ما يريد فى واحد من (السوبر ماركت) التى توجد فى مكة وكل بلاد المملكة السعودية اليوم. وهذا فى حقيقة الأمر شيء عجيب فإن الله جعل بلده الأمين فى واد غير ذى زرع ثم ساق إليه الناس الخيرات من كل مكان، حتى ليشعر الإنسان بالأمن والسعة والرخاء فيه، حتى فى أيام الخوف والشدة والمجاعة وقد أشار إلى ذلك إبراهيم رفعت باشا فى كتابه الممتع (مرآة الحرمين).. فقد كان ضابطًا فى الجيش فحمل معه (الميرة) من مصر وكأنه ذاهب إلى بلاد لا طعام فيها ولا زاد، فما كاد ينزل به حتى تعجب من وفرة الخير فى كل موضوع، وكان الناس يدعونه إلى بيوتهم، فيطعم عندهم بأكثر وأحسن مما كان يطعم فى القاهرة، حتى جعل عساكره يفرقون فى الناس ما لديهم من (البقسماط وجراية العسكر)، فنهرم وأمرهم بالمحافظة عليها خوف المجاعة. وانتهى الأمر فى خاتمة زيارته الأولى بأن أمره جنده بنفسه قبل العودة أن يفرقوا ما لديهم من الطعام فى الناس (فقد استغنينا طوال الرحلة عن ميرة الجيش والبقسماط).

وهذا الرخاء المادى الذى يتحدث عنه ابن بطوطة فى كلامه عن مكة، يعود بنا إلى الرخاء المعنوى الذى كانت مكة ومدن الحجاز تتمتع به خلال العصر الأموى. لأن مكة التى كانت قطب السياسة والمال فى العصر الجاهلى تحولت بعد الإسلام إلى ضاحية من ضواحى المدينة المنورة، لولا البيت العتيق، ثم انتقلت السياسة إلى الشام، وانتقل صراع القبائل إلى خراسان والمغرب والأندلس، وبقى الحجاز هادئًا ساكنًا يعيش فيه فى أمن ودعة من أراد العيش فى أمن ودعة خلال العصر الأموى المضطرب. وهنا، فى جو هادئ لم تعكر صفوه السياسة إلا أثناء فتنة ابن الزبير، عاش شاعر الغزل الرقيق الشريف عمر بن أبى ربيعة وهو عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى وهو أشعر من أطلعت

قريش فى تاريخها، ويكاد شعره يشف على شعر الشريف الرضى، وهو ثانى شعراء قريش من ناحية الشاعرية والإلهام، ونحن فى الحجاز مع عمر بن أبى ربيعة وكأننا مع فولفجانج جيته فى فايمار، فكلاهما شاعر عظيم يأخذ شعره بالألباب والعقول. ولقد تعلم الناس على يدى أبى الخطاب عمر بن أبى ربيعة كيف يقولون شعر الغزل فى عفة وتصاون وكمال وكان الناس يقرءون ما يحكيه من معاشقة ومغامراته فى أشعاره ويعرفون أنها خيال فلا يغضبهم ذلك منه. وكانت كريمات العقائل يسعين إلى عمر ليذكرهن فى شعره وأى امرأة لا تحب أن يقال الشعر فى جمالها؟! وهذا القول لا يضير أهلها أو يمس شرفهم فهذا كله كلام شاعر عفيف يتخيل ولا يرى والحال فى هذا يشبه ما تفعله كرائم العقيلات على طول التاريخ فى الغرب من القعود للفنانين لرسم صورهن وإضفاء لمسة الخيال على ما منحهن الله من حسن وجمال ولقد رأيت من أسابيع مجموعة من الصور رسمها كبار مصورى العصر لأميرة الأساطير فى أيامنا جريس باتريشيا كيلى التى أضفى عليها الموت المباغت جمالاً ليس بعده جمال، رأيت صورها بعدسات كبار مصورى عصرنا: أيروين بلومنفيلد وهويل كونانت وجوسف كارش وفيليب هالسمان وجاك هنرى لافارج، فقلت: هذه والله أشعار أبى الخطاب صارت صورًا! وهنا فى مكة والمدينة ترك الناس السياسة لأهل السياسة وعاشوا فى ودعة وأمان، وجعلوا من مكة والمدينة خلال قرابة القرن عواصم الشعر والفن وواحة أهل الإلهام وأطلعت مخزوم عبقريها الثانى بعد خالد بن الوليد بن المغيرة وهو عم شاعر الغزل الخالد.

وبعد هذا الطواف فى عالم الخيال والتاريخ، نعود إلى الواقع وحجاجه. نعود للغم والنكد والمعلمين الذين اتخذوا الحج ممحاة يمحون به آثامهم وما يفعلون بنا قاتلهم الله! وهنا نجد أن الداء قديم وقد تحدث عنه الحافظ أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م فى كتابه الممتع؛ (تلبيس إبليس) وهو كتاب لطيف لم يجد عند أهل الأدب والتاريخ ما يستحق من عناية، وصاحبه. وهو من أعاظم الفقهاء يكشف فيه عن آثام عصره وعيوب أهله ويقول إن هذا

الشر كله إنما أتى من إبليس الذى يتسلل إلى نفس الإنسان ولا يزال به حتى يضله عن السبيل وله فى ذلك حيل وأساليب يفصلها ابن الجوزى فى فصول كتابه. وفيما يتعلق بالحجاج يقول ابن الجوزى وكأنه يتحدث عن صاحبنا الحاج حسنين عبد الدايم عنبة وصاحبه الحاج محمدين عوضين المجذوب ممن يأكلون مال النبى ويهضمون مال بيوت الله وقد لبس إبليس على جماعة من القاصدين إلى مكة فهم يضيعون الصلوات. ويطففون إذا باعوا ويظنون أن الحج يدفع عنهم. وقد لبس إبليس على قوم منهم فابتدعوا فى المناسك ما ليس منها. فرأيت جماعة يتصنعون فى إحرامهم فيكشفون عن كتف واحدة عن كتف واحدة ويبقون فى الشمس أياما فتتكشط جلودهم وتنتفخ رءوسهم، ويتزينون بين الناس بذلك وهؤلاء كانوا يحجون لكى يقول الناس: ما أتقاهم! أو لعلهم حسبوا أنهم بذلك يمكرون على الله. والله سبحانه خير الماكرين.

هؤلاء الناس جميعا لا يحجون. إنما يسافرون إلى الحجاز ويعودون. أما الذى يحج فما يلبسون وعليهم جميعا ينطبق قول من قال: أنفقت مالى وحج الجمل! أى الجمل الذى حجوا عليه. وربما طافوا وسعوا به، فحج الجمل ولم يحج صاحبه وما أحسب لأن لهم ثواب حج أو عمرة. وحالهم كحال جار لنا ممن يحج عامًا ويغزو عامًا. أما فى عام الحج فهو ناسك وأما فى عام الغزو فهو فاتك ينتقل بين لندن وباريس ولا يكاد يترك موبقة إلا أتاها. ثم يمضى إلى الحجاز فى العام التالى يغسل ذلك كله. فى حسابه وكأنه بين حجة وعزوة يفسر فى جهل شديد قول الله سبحانه فى سورة التين ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم، ثم رددناه أسفل سافلين﴾•

• سورة التين الآية : ٤.